ساكن البيت القديم

رواية

محمود عبد العزيز شحاتة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : **ساكن البيت القديم**

المـــــؤلف : محمود عبد العزيز شحاتة

رقــم الإيداع : 23959 /2013



الطبعة الثانية 2014

(1)

يقال – والعهدة على المخضرمين –إن بيت السقا هو أقدم بناء – من الحجارة – فى حى عزبة بلال ، ولقد كانت عزب بلال ، والورد، والخمايسة، والقصيرين، والزاوية الحمراء، إلى زمن قريب، أراضى زراعية اكتسحها العمران العشوائى، فتلاشت الحقول الخضراء شيئا فشيئا، وأقيمت على تربتها الطينية مبانٍ قبيحة وعمارات التصق بعضها ببعض حتى بدا أكبر شارع فى الحى لا يزيد عرضه على الأمتار العشرة، رغم امتلاك عدد –لابأس به– من السكان سيارات خاصة، فضلاً على وجود عدد لاحصر له من عربات الكارو التى تجرها الجياد والحمير ، فما زالت تلك العربات من ضروريات العيش لبعض السكان، خاصة تجار الخشب الذين يكتظ بهم الحى ، وكانت هناك ترعة – هى أحد فروع النيل – تروى تلك الحقول، فجرى ردمها وشق فوقها الطريق الوحيد الذى يربط بين تلك العزب وبين أحياء القاهرة الأخرى الأكثر تحضرًا واتساعًا ، فتلك العزب تقع داخل مثلث انفرجت أضلاعه الثلاثة ، وهى خطوط للسكك الحديدية ، قاعدته خط سكك حديد مصر إسكندرية ، وضلعاه خطا سكك حديد ورش الفرز المخصصة لصيانة وتموين القطارات ، هذا المثلث يفرض على الداخل إلى تلك العزب أو الخارج منها أن يمر من فوق طريق خطوط القطارات ، .

وشارع أحمد حلمى هو المدخل الرئيسى لتلك العزب، ولما كان طريق القطارات محاطًا بسياج من الحجارة، فقد اضطر الناس إلى هدم جزء من حجارة هذا السياج لمرورهم، وقد أطلقوا على هذا الجزء اسم «الشرم» كما صنعوا من أرصفة الشارع سلما يساعدهم على الصعود لهذا الشرم، وهناك سلم آخر فى الناحية الأخرى، للوصول إلى تلك العزب أو حين مغادرتها ، ويسكن تلك العزب مليون أو اثنان من البشر ، فلا يوجد إحصاء دقيق بعدد السكان، كما لا يوجد كذلك إحصاء بعدد الضحايا الذين لقوا حتفهم تحت عجلات القطارات وهم يعبرون من ذلك الطريق ، ويتذكر الناس - كلما دهس القطار ضحية جديدة - أن وعودًا لا حصر لها تصدر عن مسئولين بشأن كباري وأنفاق سوف يجرى العمل بها فورًا حرصًا على سلامة المارة ، صحيح أن « فورا» هذه لم تأت قط ولكن استدعاءها يتكرر مع سقوط كل ضحية ، وتعد أيام الانتخابات هى أكثر المناسبات التى يجرى فيها إطلاق الوعود بشأن إقامة هذه الكبارى والأنفاق ، ثم تمضى تلك الوعود إلى عالم النسيان حتى يأتي موعد الانتخابات التالية ، ومن الغريب أن من يطلقون هذه الوعود هم من يفوزون بمقاعد المجالس النيابية فى كل مرة ؟ رغم أنهم لم يفوا بواحد من وعودهم.

***

يقع بيت السقا هذا على ناصية شارع بلال ، وهو أكبر شارع فى العزبة ، وكانت أمامه ساحة خالية بطول الشارع الموازى لخط سكك حديد ورش الفرز ، وكانت تلك الساحة تعد مرتعًا ومتنزهًا لشباب وأطفال العزبة والعزب المجاورة ، كما كانت تقام فيها الأفراح والموالد فى مواسمها ، ولكن فجأة قام مجهولون بتوزيع وبيع تلك الأرض لمهاجرين من صعيد مصر وعرب الفيوم ، فاختفت الساحة الشاسعة وحلت مكانها بيوت من خشب وصفيح ، ومن الغريب أن شبكة الكهرباء جرى توصيلها إلى تلك العشش القابلة للاشتعال .

يتكون البيت من طوابق ثلاثة شامخة ، ويقال - والعهدة على المخضرمين مرة أخرى - أن البيت وأرض العزبة ، كانتا ملكا لرجل من الأعيان ، باعهما - بعد ثورة يوليو - وهاجر إلي جهة غير معلومة ، وكان البيت من نصيب مشترٍ يدعى حسن السقا ، ويقال إنه اشتراه بثمن بخس .



(2)

إذا ما تأملت بشرته التى كانت تميل إلى البياض فى عمر سابق ، ووجهه المستدير التى عرفت التجاعيد طريقها إلى ثناياه اليوم ، وكذلك أنفه غير الأفطس ، أو عينيه السوداويتين اللتين مازالتا تحتفظان بقوة إبصار لابأس بهما ، فقد يراودك ظن – سرعان ما يتلاشى – أن جذوره تنتمى إلى أصول تركية أو أرمينية ، أما الحقيقة فهو مصرى حتى النخاع، ومن شعر رأسه الثلجى إلى أخمص قدميه اللتين لا تنتعلان غير الأحذية التى بلا أربطة والمعروفة بالبنص ، وإذا ما استمعت إليه– لأول مرة– فقد يراودك ظن آخر أنك تستمع إلى أحد فلاسفة اليونان القدامى، أو عالم من علماء التاريخ، أو فقيه من فقهاء هذا الزمان، والتى تزدحم بهم قنوات التليفزيون الفضائية ، ولكنك سرعان ما تبتعد عنه لتنأى بنفسك من جرأته فيما يبدى من آراء لم يألف الناس الجهر بها فى أماكن غير مأمونة، أو مع أصدقاء يمكن الوثوق بهم ، وهى آراء لا علاقة لها بحكمة فيلسوف، أو وقار شيخ بلغ العقد السادس من عمره ، أنه خميس بكر ، أقدم سكان بيت السقا ، أو آدم البيت كما يتندر على نفسه ساخرًا فى بعض الأحيان ، إذ يزعم الرجل أنه كان الوسيط الأول بين مالك البيت القديم وحسن السقا المشترى الذى أصبح يطلق لقبه على البيت .

ولد خميس بكر فى قرية أجا التابعة لمحافظة الدقهلية، ولكنه لا يحمل ذكرى طيبة لحياته فى تلك القرية، وما أن حصل على دبلوم المدارس الثانوية التجارية حتى التحق بوظيفة فى الوحدة المحلية لمدينة المنصورة، ومنذ البداية اتضح أن مستقبله الوظيفى لا يبشر بتحقيق نجاح فى الارتقاء إلى درجة وظيفية أعلى ، إذ احترف - وفى وقت مبكر - كتابة الشكاوى التى تنتقد أسلوب العمل فى الوحدة التى يعمل فيها زاعمًا أن العصر الحاضر تجاوز هذا الأسلوب الموروث من عصر الفراعنة ، كما حملت شكاواه - من سوء حظه - اتهامات صريحة إلى رؤسائه بالجهل وإعاقة تطوير أسلوب العمل والارتقاء به، ولذا فقد ظل موظف أرشيف مطرودا من مدينة إلى مدينة، ومن محافظة إلى أخرى .

وفى كل مرة كانت شكاواه تتحول إلى اتهامات مضادة تلاحقه ، من عدم إطاعة الرؤساء ، إلى الإهمال فيما يسند إليه من أعمال ، وجاءت الخاتمة الطويلة بمخازن الوزارة بالقاهرة موظفًا لا وظيفة له ، وأن كان- كغيره - من الموظفين يحصل كل أول شهر على راتب وعلاوات، حتى بلغ سن المعاش فأراح واستراح ، ويزعم خميس بكر أنه هو الذى طلب نقله إلى القاهرة، وأن الوزارة استجابت لطلبه اتقاء شر قلمه القادر على قلب الدنيا وإيقاظها، فالقاهرة - كما يقول- هى حلم كل قروى ضاق بالحياة البدائية التى مازالت تعيشها قريته ،

فضلاً على أنه مازال يرى القاهرة - رغم ما أصابها من ضمور ثقافى - منهلاً للمعرفة ، وفيها من رغد العيش لأهلها أكثر مما يتوافر لأهل قريته ، كما أن نساءها- إذا ما قارنهن بنساء قريته- فهن حور عين ، ويكفيه أن ملابسهن لا تفوح منها روائح اللبن والحلبة وروث البهائم، وإذا كانت الأحلام لا تتحقق بعيدًا عن القاهرة فما من حلم تحقق للوافد، رغم انقضاء أكثر من ثلاثين عاما مقيمًا فى عشوائيتها ، فلا أكل من رغد عيشها أكثر مما أكل موظفيها ، ولا كان نصيبه من حور نسائها غير عانس خاصمتها مفاتن الأنوثة ومحاسن الجمال، وحتى العمر غادرها مبكرًا .

ومن الغريب أنه لم يقترن بعدها بزوجة أخرى ، وإن ظلت الفكرة تراوده مرات كثيرة ، لكن شيئًا ما كان يدفعه للتراجع كلما خطا خطوة ناحية امرأة، أكان ذلك حرصًا على الحرية التي أصبح ينعم بها في وحدته؟ أم أن ما التقى بهن من النساء كن يشبهن زوجته الراحلة ؟

عن أي زوجة كان يبحث ؟ هو نفسه لا يعرف ، فما أكثر النساء اللاتي صادفهن في حياته ، أو قرأ سيرتهن في الكتب ، حتى انطبعت صورة هلامية لامرأة في خياله الجامح ، لكن هيهات أن تتجسد لشجى مثله ، خصوصًا في هذا الزمان البغيض، لو امتلك ثروة قارون لفاز بيسر بمن يشتهى، وهو لم يحلم - يوما - بثروة قارون ، إلا عندما أصبحت من ضرورات الحياة ، وكأنه اكتشف فجأة أن المسافة بين ما ادخره من مال وثروة قارون كالمسافة بين الأرض والسماء ، وبالتأكيد فقد كان عزوفه عن الزواج موضع تساؤل من معارفه ،

فكان يزعم أنه يخشى إن تزوج من امرأة والسلام ، تقاعس عن إتمام رسالته .. رسالته؟ أكانت له رسالة؟ ربما لكن ما من رسالة تمت ، أو اطلع عليها أحد، حتى جاءت خاتمته المفجعة متهمًا بشجار أفضى إلى قتل.

للإنصاف فإن الرجل – نفسه – كان يتشكك فيما يزعم به للناس ، فكثيرًا ما رأى في حجته مجرد سفسطة فارغة ، ربما كان الغرض منها قطع الطريق على فضول سائليه ، وإعفاء نفسه من البحث عن إجابة هو لم يتحر أمرها ، وربما لا يريد .

لم تكن قاهرة الثمانينيات – عندما وفد إليها – هى قاهرة الستينيات عندما كان يزورها طفلاً بصحبة والديه، ويزور مساجدها، وأضرحتها، للتبرك بأوليائها، ،فقاهرة الستينيات كانت تقارن بمدينة باريس ، على حين تقارن قاهرته اليوم بمدينة أجا مسقط رأسه ، وأن كانت تتفوق عليها بشدة الزحام ، وحجم التلوث ، وعبوس وجوه مواطنيها .

وكان فى بداية إقامته كثير التنقل والترحال، من حى إلى حى، ومن بيت إلى بيت، لا رغبة فى التنقل والرحال ، ولكن لأسباب اقتصادية، أو لصدام مع جيران ، فسكن حدائق القبة ، وعابدين ، وشبرا، ومنها عرف إحياء العزب ، وعرف بيت السقا وقد أبدى إعجابه بطراز البيت العتيق وطوابقه الثلاثة الشامخة ،

لكن ما أدهشه حقًا أن يجد بهذا البيت شقة معروضة للإيجار ، وزاد من دهشته أن مالك البيت قد حرر له عقدًا دون مطالبته بخلو رجل أو تأمين أو ما شابه ، لكن سرعان ما تلاشت دهشته بعد أسابيع قليلة من إقامته بالشقة ، فقد سمع الناس يعرفونه (بساكن شقة العفاريت) فراح يتحرى أصل التسمية

فعرف أن تلك الشقة شهدت مصرع عروسين إثر انفجار (وأبور جاز) اشتعلت نيرانه بجسديهما وهما يستحمان ، ومنذ تلك المأساة المفجعة والشقة يهجرها كل من يسكنها بعد شهور قليلة ، ويشاع في كل مرة أن من يقطونها يستيقظون مذعورين قبيل الفجر على أصوات أوانٍ نحاسية يجري العبث بها في المطبخ ، أو استغاثات مبهمة تجربهم على البقاء مستيقظين حتى طلوع النهار ، كما نسج بعض رواة الواقعة حكايات مخيفة عن ظهور شبح العروسين بحمام الشقة وهما يستحمان بألسنة اللهب وكأنها الماء .

في البدء تلقى خميس بكر تلك الحكايات باستهانة وعدم مبالاة ، فمنذ وطأت قدماه مسكنه الجديد لم تلتقط أذناه أصوات عبث بأواني مطبخه ، أو أبصرت عيناه شبح أي من العروسين ، لكنه منذ راح يتساءل عن كيف يكون شكل وهيئة العفريت ؟ حتى جاءه الجواب بسرعة أقضت مضجعه ، فما إن يغط في النوم ساعة حتى يهب من مرقده فزعًا على صورة هلامية لشبح يسد باب غرفة نومه ، فيحاول النهوض من فراشه لكنه يستشعر عجزًا حقيقيًا

وقد تلاحقت نبضات قلبه بسرعة تهدد بتوقفه ، فيستسلم لفراشه وقتًا طويلاً قبل أن يدرك أن كابوسا مزعجًا قد مسه ، ثم ينسل من فراشه فيضيء مصباح غرفته ويتجه إلى المطبخ وقد أضاء كل مصباح في طريقه ، ولا يعود إلى هدوئه قبل أن يعد كوبا من الشاي ويدخن عددًا من سجائره ، وأحيانًا كان يمضي إلى نافذة بشقته فيفتح ضلفتيها ليندفع الهواء البارد إليه فيتلقفه بارتياح ، وحتى إن عاد إلى فراشه لا ينعم بالسكينة إلا بعد أن يرسل أذنيه إلى مطبخه ليتوثق أن أوانيه ساكنة لا يعبث بها أي من الشبحين .

وقد طالت كوابيسه بضع سنوات ، خصوصًا في فصول الشتاء ، رغم تيقنه أن تلك الكوابيس لم تعرف طريقها إلى أحلامه إلا منذ أعطى أذنيه لخرافات الرواة .

كانت تلك الشقة التى آلت إلى خميس بكر بالطابق الثالث من البيت، وكان هذا الطابق - وحتى رحيل حسن السقا - هو الطابق الأخير، وكانت الشقة التى تقابل شقته مثار جدل وغضب من السكان، ذلك أن حسن السقا منذ اشترى البيت ، خصص تلك الشقة لسكن الطلاب والعزاب حتى تدر دخلا ما كانت تدره أن سكنتها إحدى الأسر ، وعادة فإن أرباب الأسر لا يرتاحون إلى وجود عزاب بينهم ، ولكن عدم راحة أرباب الأسر لم يثن حسن السقا عن اختيار سكانه .



(3)

تضاءل دخله منذ أحيل إلى المعاش، ورغم أنه لم يكن مكلفًا بالإنفاق على زوجه أو أبناء، فقد كان يعانى شأنه شأن أرباب الأسر، ومحدودي الدخل ، وأن كان لا يشكو أو يستدين كغيره ، وهو يرى أنه من غير المبذرين، فإنفاقه لا يتجاوز الكثير بعد التزامه بأجرة شقته وتكاليف طعامه وسجائره وما يضطر إليه من شراء ملابس، أما الجانب الأكبر من دخله فيبتلعه مقهاه وما يشتريه من كتب ، فهو يعد قارئًا جيدًا فى زمان توارى فيه القراء، وباستثناء ما سلف فلا يسمح دخله بقضاء إجازة فى منتجع من تلك المنتجعات التى تزدحم بها إعلانات الصحف ، ويرتادها أبناء الطبقة الجديدة التى جاد بها الزمان الجديد ، ومما يزيد من حنقه وغضبه أنه لا ينتمي إلى تلك الطبقة ، ولا جادت وظيفته الفقيرة بمال - ولو عن طريق غير سوى - بما يدفع به إلى ناحية تلك الطبقة، ورغم أنه لم يفز طيلة سني عمره بصديق حميم ، فقد كان يعد كل زملاء العمل - حتى ودعهم - من الأصدقاء ، وكذلك كل سكان بيت السقا ومن يعرفهم من أبناء العزبة التى يقع فيها البيت، رغم أنه لم يكن يزور أو يزار، وباستثناء واجب عزاء يضطر إليه، فلم يَعُدْ مريضًا منهم ، أو شاركهم أفراحهم، وكان الأقرب إليه من بين سكان البيت شاب يدعى قنديل الملطاوى .

و قنديل الملطاوى هذا كان طالبًا عندما وفد إلى البيت من قريته النائية فى صعيد مصر، وعندما تخرج في كلية الإعلام لم يغادر البيت شأنه شأن من سبقوه ، فإلى أين يغادر والمستقبل مرهون بوجوده فى القاهرة ؟ وبالتالي فلا مأوى له- اليوم- غير هذا البيت العتيق، وهذا الحى الذى يعج بالبؤساء الذين يخاصمهم الطموح ، وهى مرحلة عليه أن يتحمل صعوبتها حتى العثور على وظيفة مناسبة، فلم يتردد فى ممارسة ما توافر له من أعمال كل مؤهلاتها ساعدان قويان وجسد قادر على تحمل الإجهاد ، فدعم أسرته - التى تدبر قوت يومها بالكاد - توقف منذ انتفت صفته من طالب إلى عاطل يحمل مؤهلاً ، ولن يضر الحكومة - بالتأكيد - أن تضور جوعًا ، كما أنها لن تشعر بالعار أن باع حملة مؤهلاتها المناديل الورقية أو أقراص النعناع ، ثم جاءت - بمعاونة صديق - الفرصة للعمل كمتدرب بإحدى المؤسسات الصحفية ، ولو قدر له أن يتم تعيينه لأصبح صحفيًا ذا شأن ، ولكن السنوات تتبخر ومازال الأمل فى التعيين بعيد المنال .

- ألا توجد أخبار بشأن التعيينات ؟

سؤال أصبح طرحه على رئيسه المباشر تقليدا روتينيا ، وكذلك كان ما يتلقاه من جواب :

- كتبنا مذكرةً جديدةً لتعزيز المذكرة المرفوعة إلى رئيس التحرير بشأن تعييناتكم ، تعرف كم نعانى مع المجلس الأعلى للصحافة ؟

وماذا عن معاناتنا نحن يا كتبة السلطان وأُس الفساد ؟ وماذا عن المحظوظين الذين جرى تعيينهم بين عشية وضحاها ؟ كيف قبلهم مجلسكم الأعلى دون معاناة ؟ إن كلمة حق عند سلطان جائر كافية لطردي خارج مؤسستكم التى تتوارثونها بالرياء؟ لو قدر له الفوز بمليون جورج قرداحى لبصق على المؤسسة وكل ورثتها ، فمليون القرداحى تساوى المليون ونصف المليون بالعملة المصرية ، وترجمتها شقة فى حى آدمي وسيارة خاصة ومشروع يجلب الملايين ، فضلا على عروس تصلح للمباهاة إذا ما قارن بينها وبنات قريته

- صديقى الصحفى ؟

هذا هو اللقب الذى يناديه به صديقه العجوز ، فمتى يصبح حقيقة ويرى بعينيه اسمه منشورًا بإحدى صفحات الجريدة ؟ متى يحمل بطاقة نقابة الصحفيين ؟ متى يكون فى استطاعته طباعة كارت مزان بـ «لوجو» الصحيفة، وقد توسطه اسمه الذى مازال مغمورا ؟ ألا يجود زمانى بالتعيين أو بمليون القرد احى ؟



(4)

قلب تقاعده يومه الذى كان حافلاً بالحركة والنشاط إلى ما يشبه الخمول ، وأصبح الشعور بالوحدة – التى كان يألفها – يقلقه ، خاصة أنه كان يعقبها إحساس بخوف من موت قد يأتى فجأة ، وقد لا تكتشف جثته إلا بعد أن تفوح رائحتها ، ولكن هذا الإحساس يتلاشى شيئًا فشيئًا ؛ حتى يتراجع أمام إيمان يتمسك به، إن الحياة يمكن لها أن تبدأ بعد الستين ، وما دام الله قد أنعم عليه بالعافية، وجنبه شر أمراض مزمنة، أو عجز يجبره على اللجوء للغير، فلا مندوحة من تحدى الخوف ، أليس سر الروح من أمر الله وحده؟ ومادام العلماء لم يكتشفوا سرها فما يضيره تعفن جثمانه أن تشممه الآخرون؟ ورغم إيمانه بنعمة العافية فلم يترجم إيمانه إلى التزام بالصلاة ، أو ارتياد لمسجد فى غير المناسبات الضرورية ، وعلى ذكر المسجد فقد كانت هناك واقعة مخجلة منسوبة للرجل ، وكم تمنى أن تمحى من ذاكرة من عاصروها ،

خاصة أن الواقعة كان لرواتها أهواء فى التندر بها ، وهو ما جعلهم يضيفون إليها وينقصون منها ، وبعيدًا عن تلك الأهواء

فقد كان هناك خلاف بين الرجل والمشترى الأول للبيت المدعو حسن السقا ،

إذ كان الثانى قد وعد الأول وهبة« حلوان » فى حال توسط الأول عند المالك لإتمام عملية البيع لصالح الثانى ، ويبدو أن تلك الوساطة لم تسفر عن شيءٍ ،

أو تمت عملية البيع والشراء بعيدا عنها ، لكن ذلك لم يمنع خميس بكر من التمسك بحقه فى الحلوان الذى تعهد به المالك الجديد، لكن المالك رفض منحه شيئًا مستندا إلى أن البيع والشراء تما دون وساطته ، وقد ترك هذا الخلاف فى نفس خميس بكر جرحًا لم يشف منه قط ، حتى جاء يوم لقى فيه خميس بكر الرجل فى مسجد العزبة ، إذ كان حسن السقا – على عكس خصمه – من رواد المسجد المشهود لهم بأنهم من أوائل من يدخلونه قبل قيام الصلاة وآخر من يغادرونه بعدها ، يقول الرواة إن خميس بكر كان فى حالة يرثى لها عندما دخل إلى المسجد، إذ بدا غاضبًا كظيم الغيظ، لكن هذا الغضب وهذا الغيظ انفجرا عندما رأى حسن السقا يقف فى الصف الأول بين المصلين، وكان هو بين الصفوف الخلفية، فاخترق الصفوف حتى وصل إلى حيث يقف خصمه، وقد فاته أن الصلاة كانت قد بدأت وأن المصلين يتأهبون للسجود، وبينهم حسن السقا الذى فوجئ بهذا الشيطان الذى يقف أمامه ويمنعه من السجود ، وإذا بصوته يخترق صمت الخشوع:

– هل تظن أن الله يمكن أن يقبل الصلاة ممن يأكلون حقوق الآخرين ؟أم أن غايتك خداع هؤلاء الناس؟ أم حسبت أن المسجد كالمعبد يدخله الحاخامات ؟

ورغم هول المفاجأة حافظ حسن السقا على خشوع صلاته، فواصل سجوده، بينما راح خميس بكر يخاطب المصلين فى غير ما وعى:

– أيها الناس هذا الرجل أقسم بالله ورسوله أن يمنحنى «حلوانا » عن صفقة اشترى بمقتضاها بيته، ثم نقض عهده وضرب بقسمه عرض الحائط ، فما معنى صلاته ونسكه غير الزيف والخداع؟

وانتبه فى تلك اللحظة إلى سجود المصلين فأدرك سوء ما صنع وبسرعة تحرك ناحية المكان الذى ترك فيه حذاءه، وغادر المسجد مهرولاً .



(5)

وَلّت السكينة التى كان ينعم بها سكان البيت منذ آلت ملكيته إلى مقاول مغمور يدعى بخيت بيومى، ولم يكن أحدًا يعرف عن الرجل أكثر من أنه مقاول صغير يقوم بمد شركات المقاولات الكبرى بالعمالة الماهرة فى مجال البناء، ولم تكن هيئة الرجل توحى للناظرين بشأن عظيم، فجلبابه ملبد بغبار مهنته، وملامح وجهه صلبة لا تشجع محدثيه على ثرثرة فى غير شئون الطوب والأسمنت والزلط، ولا يعرف أحد كيف نجح هذا الداهية فى شراء البيت من ورثة حسن السقا بعد رحيله، وقيل إنه تعامل مع كل وريث بعيدًا عن الآخر حتى يؤمن عدم اعتصامهم ضد الثمن الذى كان قد حدده مقدمًا، ولم يكن الرجل فى عجلة من أمره، فقد استغرقت عملية الشراء السنوات الخمس، مما يدل على حسن استثماره ودرايته بسوق العقارات، ومن المؤكد أن سكان البيت قد توجسوا قلقًا عندما علموا بانتقال الملكية إلى المشترى الجديد، خاصة أن أثرياء زمانهم الجدد لا يعنيهم غير جنى الأرباح، ولو اضطر – السكان – إلى الإيواء فى الخيام، وزادت من هواجسهم عندما شاهدوا –ذات صباح – وصول شحنات من الرمل والطوب والزلط وأسياخ الحديد وشكائر الأسمنت، وقد ظن بعض حسن النية أن الأمر يتعلق بترميمات بالبيت، كان الورثة السابقون يتقاعسون عن القيام بها، ولكن سرعان ما تبين أن هذه الشحنات جاءت لإضافة طابق جديد إلى البيت، وقد احتج بعض السكان متسائلين :

- هل يحتمل البيت طابقًا جديدًا ؟

فقال المالك ذو الوجه الصارم :

- هذا البيت فى صلابة الأهرامات، انظروا إلى عرض حوائط جدرانه ؟

كاد البعض يقبل تبريره فسارع خميس بكر :

- هذا لا يطمئن ، ولا بديل عن تحرير محضر بالواقعة فى قسم الشرطة؟

لم يهتز بخيت بيومى لتهديده:

- موقفى سليم من الناحية القانونية، وقد حصلت على ترخيص من الحى بالبناء.

« لم تقطع جهيزة قول كل خطيب» كما يقولون، إذ قال خميس بكر :

- كيف يمنحونك ترخيص بناء فوق بيت آيل للسقوط ؟

- لو كان كذلك لمنحونى ترخيصا بالهدم ،وهو مغنم لبناء عمارة أو برج كما تعلم ؟

فتساءل من لا حول له :

- وأين نذهب نحن ؟

- هذا سؤال يوجه للحكومة ،وليس لمالك بيت ؟

فعلق خميس بكر ساخرًا :

- وأين تسكن هذه الحكومة من فضلك ؟

تجاهل ذو الوجه الصارم سخريته وراح يقول :

- من لا يطمئن فليرحل ، لا احتجز أحدا كما ترون ؟

قبل السكان – ليس جميعهم – التحدى، وتزعم خميس بكر قيادة نفر منهم لتحرير محضر بالواقعة، وفيما بعد، برر قنديل الملطاوى- وكان أول اللامبالين- انسحابه من المواجهة لصديقه العجوز :

- لن يجدى تحديه ، فالشرطة لم تعد فى خدمة المعدمين؟



(6)

خصص المعلم بخيت بيومى إحدى الشقتين اللتين جرت إضافتهما إلى البيت لإقامته مع زوجه التى كانت تقطن بالزاوية الحمراء، وهى امرأة تصغره بعشرة أعوام ،فلم تكن قد تجاوزت الثلاثين، كما بدت ملامحها نقيضًا لملامحه الصارمة ، كما أن لوجهها المستدير صفاءً يريح الناظرين، و لجسدها البض - غير الممتلئ - جاذبية تثير فضول المتطفلين من أمثال خميس بكر، وهى الزوجة الثالثة التى اقترن بها بخيت بيومى ، وإن كان كثيرون لا يعرفون ذلك ، فقد طلق الرجل سابقتيها قبل اقترانه بها، وذلك لفشلهما في إنجاب طفل يحمل اسمه، ويرث ما يدخره وما يكنزه من أموال ، ولم تكن تلك رغبته وحده ، بل كانت تلك كل آمال أمه، التى مازالت تسكن الصعيد رافضة الهجرة إلى القاهرة للإقامة معه في بحبوحة رزقه - كما يقول - وقد ساءه - كثيرًا - أن إحدى مطلقتيه قد أنجبت ما أن تزوجت من غيره ، وهو ما حثه أخيرًا على زيارات الأطباء ومعامل التحاليل ، إذ لم يكن من هؤلاء الذين يرون فى زيارة الرجل لعيادات الأطباء ضرورة، مادام يقوم بدوره فى مضاجعة زوجه، ويقذف عندها ماءه ،هل يحمل الرجل الطفل فى أحشائه ؟ ورغم ذلك أراحه الأطباء بعد اطلاعهم على نتائج تحليلاته ولم يروا عائقا فى قدرته على الإنجاب، مع بعض الأدوية المساعدة.

لم تكن العروس التي اختارها بخيت بيومى من بلدته، أو من معارف أمه كسابقتيها، ولم تكن -كذلك- بكرا كطلبها، فقد كانت جارة له في الزاوية الحمراء حيث كان يقيم، وقد استلفت نظره طولها الفارع، وبشرتها البيضاء،ولم يكن ينقصها الذكاء لاستكشاف نظراته التى تلاحقها كلما صادفته ، وهى مصادفات كان معظمها مدبرًا بالتأكيد؟ فدعته ابتسامتها المثيرة إلى مطاردتها ، فاستجاب بسرعة لا ينقصها حب المغامرة، حتى بدا كتلاميذ المدارس وهو يطاردها فى تسكعها أمام فاترينات المحلات ، تتأمل معروضاتها ، وأن كانت تنقصه قدرة التلاميذ فى اختيار كلمات الغزل المحببة إلى البنات والنساء، فلم تكن تنقصه القدرة على الوصول إلى مبتغاه ، ولا كانت تنقصه الجرأة على مفاتحتها برغبته فى الاقتران بها، فتلقت رغبته بدلال زاد من جدية عرضه وإصراره على تحقيقه، ورغم أنها فاجأته بأنها مطلقة وتقيم اليوم مع أمها، وأن لها صبيًا يعيش فى كنف والده – طليقها– ، لم يتردد قيد أنملة عن عرضه، بل عد تجربتها السابقة فى الإنجاب دليلاً على خصوبة بطنها؟ ووجد نفسه كالمسحور ملتاعًا فى إعداد بيت الزوجية، غير عابئ بمبالغات العروس وأمها فيما يطلبان من تجهيزات، وهى مطالب لم تجرؤ أى من مطلقتيه على طلبها .

ومضت سنوات الزواج الأولى في ترقب وقلق دون بشرى بالغاية من الزواج ، ولم يكن وحده الذي يعتريه القلق ، فقد انتقلت عدواه إلى العروس الجديد ، حتى باتت تتحسب لتكون طليقته الثالثة ، أو تشاركها في رجلها زوجة رابعة ، ولم تكن أمها أقل قلقًا منها، وكانت نصيحتها لابنتها ومنذ أول يوم للزواج بضرورة ادخار ما تستطيع ادخاره من أمواله فى حساب خاص بها ، وكانت الابنة خير من استوعب النصيحة ، وكان دلالها الجميل خير معين فى نيل الهدايا الذهبية ، ودون وجود – بالضرورة – مناسبات غير طلب الرضا والقبول، إذ كان هذا الزوج العملاق ذو الوجه الصارم يتحول إلى حمل وديع أمام دلالها الجميل، والذى لم يحظ به فى علاقته من زوجتيه السابقتين ، فما قيمة سوار من الذهب، أو ورقة نقدية، من ثروة مقاول تنهال عليه إرباح لا يحصى عددها ؟



(7)

بدأ الصدام مبكرًا بين المالك الجديد للبيت وخميس بكر، فمن ناحيته كان مالك البيت يرى أن خميس بكر هو من يقود السكان للوقوف ضد مشروعه الكبير فى تحويل البيت العتيق إلى عمارة سكنية بإضافة عدد من الطوابق إلى طوابقه الثلاثة ،بينما كان خميس بكر يرى فى المالك الجديد نموذجًا للأثرياء الجدد الذين جاءوا بمعاولهم وأموالهم للقضاء على مكتسبات الطبقة الفقيرة التى ينتمي إليها خميس بكر، وهى الطبقة التى أطلقت عليها الحكومة (طبقة محدودي الدخل)، وهو تعبير خبيث صكه خبثاء، لتبرير عجز الحكومة عن عدم قدرتها علي توفير حاجات الناس بسبب تحملها دعم الخبز الحاف لتلك الطبقة ، وكأن محدودى الدخل نبت شيطانى، أو مهاجرون غير شرعيين، بينما دعم طبقة الأثرياء الجدد هو واجب وطني.

لم يعد المالك الجديد يملك أدني شك فى أن سكان البيت وعلى رأسهم خميس بكر، لا يضمرون له غير الحقد والحسد، إذ كان بعضهم لا يرى غضاضة فى حق المالك أن يضيف طابقًا جديدًا لبيته، شرط أن لا يتجاوز البناء هذا الطابق:

- لن يقتصر الأمر علي طابق لإقامته؟ وإلا ما كان ليشتري البيت؟
- لننتظر حتي تتضح نواياه؟

فتساءل خميس في غيظ:

- أمازالت نواياه عنكم غائبة؟

- أنت تبالغ دائما في سوء الظن بالآخرين

وأضاف آخر:

- محضر الشرطة الذي حررناه كافٍ لردعه

- مثل هؤلاء لا رادع لهم إلا التحدى ؟

- تحداه وحدك ، ولن تجدنا إلا إذا تجاوز هذا الطابق؟



(8)

كانت الشقة التى يستأجرها قنديل الملطاوى تتكون من غرفتين ، خصص إحداهما لسكنه ، بينما كان يؤجر الأخرى للطلبة، وكان مستأجرها اليوم طالبا فى الأزهر يدعى محمد نبيل، وقد رأى محمد نبيل هذا أن يأتى بزميل يشاركه الغرفة ليتقاسم معه أعباءها، وتقبل قنديل الأمر، عارفًا بالضائقة الاقتصادية التى يعيشها الطلبة، ألم يكن ذات يوم واحدًا منهم؟ وإن كان مازال يعيش المعاناة نفسها، وقبوله لساكن جديد لا يعنى تنازله عن شروط ثابتة لا يجوز المساس بثوابتها، وهى شروط تعود إلى المالك الأول للبيت، وهى تتعلق بعدم استقبال أغراب بالغرفة ، وإن كانوا من زملاء الدراسة ، وحتي إن كانت الزيارة بغرض المذاكرة الجماعية ، وكان الشرط الأهم هو الابتعاد عما يزعج الجيران، أو يثير ضيقهم أو ارتيابهم، وهى شروط كان مستأجرو الغرفة يتقبلونها من غير اعتراض أو غضب، وهكذا جاء محمد نبيل بأحدث وجوه بيت السقا ويدعى سعيد الدسوقى، ورغم زمالتهما فى كلية واحدة، وغرفة واحدة، فقد بدا كلاهما نقيضًا للآخر، فعلى حين كان محمد نبيل فضوليًا لا يكف عن الثرثرة، كان سعيد الدسوقى هادىء الطباع لا يتدخل فى شئون الغير، كما كان قليل الكلام ، فلا يعرف عنه غير أنه يتيم الأب تكفلت بأمره جدته لأبيه بعد زواج أمه، على حين يعرف الجميع السيرة الذاتية لمحمد نبيل، من مولده بقرية كفر عصام

التابعة لمدينة طنطا ، إلى أسرته الميسورة الحال والتى كافح عائلها ليقدم للمجتمع الطبيب والمهندس والزوجة الصالحة، ومن المؤكد أنه كان يبالغ بشأن الحالة الاقتصادية لأسرته، خاصة أن معيشته فى القاهرة كانت تتناقض مع ما يرويه، وليس فى هذا ما يعيب الشاب ، فكثير ممن هم على شاكلته يتبرأون من فقرهم؟ وكذلك جعل الله لكل من الرفيقين وجهين مختلفين، فعلى حين يبدو وجه سعيد الدسوقى ، ابن محافظة الشرقية ، مستديرًا، تميل بشرته إلى اللون الأبيض، وتشع من ملامحه المرسومة بعناية براءة يأنس إليها محدثوه، يبدو وجه رفيقه مستطيلاً ممصوصًا ، يميزه أنف مقوسة، ورغم السن الصغيرة نسبيا، فقد نبتت شعيرات شاربه ووجنتيه بكثافة، وكان يتركها دون تهذيب مما ينفر الناظرين ، أما جسده فكان أكثر طولاً من رفيقه وأكثر رشاقة، وإذا ما عدنا إلى الشروط المفروضة على سكان شقة العزاب، فإن رجلاً واحدًا جرى استثناؤه من تلك الشروط، ليس بحكم إقامته فى الشقة المواجهة لشقتهم فحسب، بل لمكانة الرجل عند شاغلها، وبالتأكيد عندما علم خميس بكر بأمر الوجه الجديد فقد سعى إلى التعرف إليه؟



(٩)

جرى التعارف بين الرجل والفتى فى غرفة قنديل الملطاوى، وهى الغرفة الكبيرة فى الشقة، إذ تحوى فراشًا قديمًا ودولابًا ذا ضلفتين، وإن لم يكن للضلفة الثانية من وجود، وكذلك توجد كنبتان بينهما منضدة، تراكمت فوقها صحف قديمة وأوراق غير مرتبة، وللشقة حمام ومطبخ يتشارك فيهما شاغلو الغرفتين، وبينما كان قنديل يعد الشاى فى المطبخ لضيفيه، كان الحديث يدور بين الرجل والفتى :

- كنت مثلك يتيم الأب ، ولم تكن جدتى على قيد الحياة ،. فعشت فى رعاية زوج الأم ، وكان من حسن حظى وحظ شقيقتى ، أن هذا الزوج كان ضعيف الشخصية، وكان يعشق أمى إلى حد الجنون، فكان يعمل على إرضائها باهتمامه بشأنى وشأن شقيقتى، وقد لا تصدق أن القسوة كانت تأتينا من ناحية الأم؟ والغريب أننى وشقيقتى كنا نحتمى به للنجاة من عقاب أُمنا؟

وقال سعيد:

- أظن كنت مثلك حسن الحظ، فجدتى لم تنجب من الذكور غير أبى رحمه الله ، لذا عدتنى ابنها وحفيدها فى الوقت نفسه ، ورغم تجاوزها السبعين ،أطال الله عمرها، ما زالت تقوم على خدمتى وكأننى ابنها وزوجها .

وجاء قنديل بأكواب الشاى، بعد زمن أطول مما يستغرقه إعدادها، وقال مبررًا تأخره الطويل :

– اكتشفت أن لا سكر في المطبخ، فاضطررت للذهاب إلى البقال ثم أضاف :

– لقد ارتفع سعره ثانية ؟

علق خميس بكر، بينما قام سعيد بحمل الصينية عن قنديل :

– وما الذى لم يرتفع سعره؟

وروى قنديل وهو يتخذ مجلسه على الكنبة إلى جوار سعيد ، أنه التقى بالست عنبة عند البقال، وقد هاله هذا الكم الهائل من الأساور التى يتحلى بهما معصماها؟ ثم أضاف معلقا :

– إنها تحمل ما يكفى لفتح محل جواهرجى؟

فعلق خميس بكر على قوله وهو يرتشف من كوبه :

– هذه نظرة راسكولينكوفية إلى المرأة؟

أدرك قنديل أن صديقه يتهيأ لفلسفة ملاحظته، خصوصا أمام الوافد الجديد فتساءل :

- كيف؟

- راسكولينكوف هذا هو بطل رواية الجريمة والعقاب للأديب الروسي فيدور ديستويفسكى ، فقد أوحت ثروة امرأة عجوز لراسكولينكوف هذا بمشروع رأى فيه حلا للخروج من أزمته؟

- كيف ؟

- كان راسكولينكوف هذا يعانى ضائقة مالية عظيمة، ورأى العجوز تكتنز المال بشكل غير شرعى، فرأى أن يضرب عصفورين بحجر واحد، ليحل مشكلته من ناحية، ويخلص العالم من شرورها من ناحية أخرى؟

فتساءل سعيد:

- هل قتلها؟

- نعم

- من أجل المال؟ اللعنة على المال الذى يأتى للمرء مقابل إزهاق روح إنسان حتى وإن كان عجوزًا؟

- لم يكن من أجل المال فحسب ؟ إذ كان راسكولينكوف فى الواقع يريد أن يستكشف القوة الخفية داخله، إن كانت قوة نابليون ؟ أو كان هو «قملة »كبقية الناس؟

رمقه قنديل وهو يسأله:

- أترى تعليقي على ما تتحلى به المرأة من أساور كاف لمقارنته بمشروع راسكولينكوف هذا؟

فقال خميس بكر ضاحكًا:

- لماذا تغضب؟ لقد أثارنى أنك لم تر الجانب الأهم فى المرأة ، رغم مابك من فتوة الشباب؟

- كذلك أثارنى زجك براسكولينكوف هذا على ملاحظتى عما تتحلى به المرأة من أساور؟

فأشعل خميس بكر سيجارة جديدة وهو يقول :

- اعترف أمامك أنني كنت لأتبنى بنفسى مشروع راسكولينكوف هذا لو كانت تلك الأساور في ساعدى زوجها فراسكولينكوف وحده هو القادر على تطهير هذا البيت من لصوصه الجدد .

- وما الفارق أن يكون الذهب بيده أو يدها

؟

– كالفارق بين من يقتل بقرة فينتفع الناس بلحمها ، ومن يقتلع شجرة كان الناس يستظلون بظلها؟

وتساءل قنديل:

– وكيف ترى أنت المرأة؟

– إن كانت عنبة فلن تختلف نظرتى إليها عن نظرات راسبوتين إلى نساء عصره؟

فتساءل سعيد هذه المرة:

– راسبوتين؟

– راسبوتين هذا كان راهبًا فى روسيا القيصرية، وكان يرى فى مضاجعة النساء عملاً يتقرب به الإنسان إلى خالقه؟

فغر الفتى فاه وهو يتساءل:

– وهل يقرب الله زان إلى ملكوته؟

فراح يتلو:

- «إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ».

- هذا تأويل من يشتهى أنثى؟

- بل هى فلسفة راسبوتين، وما أشبهها بفلسفة بعض الصوفيين ؟



(10)

منذ أن استقرت الست عنبة - زوجة المعلم بخيت بيومى- فى شقتها الجديدة ببيت السقا،- وهى إحدى الشقتين التى يتكون منهما الطابق الرابع الذى جرت إضافته للبيت - وهى محط أنظار الجميع، فقد شغل ظهورها الأول السكان كافة، من رجال ونساء، ما بين معجب بجمالها الصارخ ودلالها المثير، وبين حاسد وناقد على هذا الجمال وهذا الدلال، كانت عنبة تعرف كيف تختار ملابسها وكأنها عارضة أزياء، رغم أن ملابسها تكاد تقتصر على العباءة المعروفة، وهى بالتأكيد تناسب جسدها البض وطولها الفارع، ولم يكن ينقصها الذكاء ليخفى عليها هذا الإعجاب الذى تراه فى بعض العيون، وهذا الحسد الذى تقرأه فى البعض الآخر، وكانت أكثر العيون جرأة هما عينا ذلك العجوز الذى يتجاهل عمره الحقيقى، وينتحل فتوة الشباب وأحيانا تهورهم؟ وقد تجاوزت يده جرأة عينه، فما أن يلقاها حتى يمد يده ناحيتها بحجة السلام، وإن صادفها فى اليوم الواحد أكثر من مرة، مدركة بالطبع أن العجوز يستشعر راحة من عناق اليدين؟ ورغم ما كانت تعلم من خصومة بين الرجل وزوجها، كانت تستشعر ضعفًا ناحية العجوز، ربما مبعثه شخصيته المثيرة للاهتمام،

أو سنه التى تقارب عمر أبيها الذى مضى مبكرًا، وذات يوم صادفته وهى فى طريقها من السوق إلى البيت، وكانت تحمل سلة مكتظة بما تتسوق النساء من السوق، وكانت السلة ثقيلة الوزن بالفعل، وإذا بالرجل يتطوع فيحمل عنها سلتها، وبإصرار أطرب غرورها الأنثوى، ورغم أن وجهته كانت مضادة لوجهتها:

- ولكن طريقنا مختلف؟

فقال ضاحكًا وكان يرمى إلى إثارة اهتمامها :

- ليكن ، فمن أجلك اصنع ما صنعه الجاحظ مع إحداهن؟

وهى بالطبع لم تكن تعرف هذا الجاحظ ، ولا صنيعه؟ فتساءلت بدلالها المحبب إلى محدثيها:

- كيف؟

فراح يقص ، وهو قصاص ماهر، خاصة أن المسافة الزمنية إلى البيت كانت تسمح بالقص:

- الجاحظ يا سيدتى، كان من أئمة أدباء العرب فى العصر العباسى، وكانت به دمامة، كما كانت بشرته زنجية اللون، وذات يوم، استوقفته امرأة فى الطريق، وكانت فى مثل جمالك، وسألته أن كان يصنع لها معروفًا، ولم يكن الجاحظ هذا ليرد طلبا لطالب، فاصطحبته المرأة إلى رسام معروف، وإذا بالمرأة تخاطب الرسام

وهى تشير إلى الجاحظ: مثل هذا؟ ثم تركته ومضت، ولأن الجاحظ لم يفهم ما الذى كانت تعنيه المرأة؟ فقد سأل الجاحظ الرسام عن سبب حضوره إلى مرسمه؟ ففاجأه الرسام قائلا إن المرأة كانت قد طلبت منه أن يرسم لحسابها صورة لأقبح رجل فى العالم، ولما كان الرسام لا يعرف هيئة أقبح رجل فى العالم فقد طلب منها أن تأتى بشبيه له؟ فغادرته المرأة، ثم عادت وبصحبتها الجاحظ.

ضحكت المرأة بذات الدلال، وراحت تنظر إليه وكأنها تضعه فى مقارنة مع من يروى عنه:

- ولكن ما أبعد الشبه بينك وبين جاحظك؟

كانت به جرأة فلم يتحرج من أن يعلق:

- الفارق أن الجاحظ كان يمد يده للجميع، أما أنا فأنتقى الناس

أطربته ابتسامتها.



(١١)

وباستثناء خميس بكر، فإن أى من سكان البيت لم يثر اهتمامها كما أثاره هذا الفتى ذو الوجه الطفولى، والذى يدعى سعيد الدسوقى، كما أثارها هذا الحياء الشديد الذى يلقاها به كلما تصادفا على سلالم البيت أو فى طريق، لعل هذا الحياء هو ما يجعله عاجزًا عن تحيتها إن مر بها، وليس عن تجاهل أو استعلاء، فعيناه الواسعتان الجميلتان يتوارى لمعانهما ما أن ترنو ناحيته بعينيها الجريئتين.

وقد قدر لها يوما أن تشهد جبينه وهو ينفض عرقًا حين صادفته على السلالم، فبادرته :

– صباح الخير يا أستاذ سعيد .

أخذته تحيتها المفاجئة ، كما أخذه معرفتها باسمه فأجاب متلعثما:

– صباح الخير.

– هل أنت من المقيمين فى هذه الشقة ؟

وأشارت إلى ناحية باب الشقة التى يقيم فيها خميس بكر ، ربما عن عمد :

– لا، أنا أقيم فى الشقة الأخرى ، مع الأستاذ قنديل الملطاوى.

وكانت قد تعرفت فى مرة سابقة على قنديل الملطاوى ، وبدا لها فى جرأة خميس بكر، وإن كان لا يجرؤ – مثله – على مد يده ناحيتها بحجة السلام ، ولسبب ما أصبحت تلقاه – قنديل الملطاوى – بوجه غير وجهها الذى ألفه الناس عندها، وهو وجه يقطع الطريق على كل من تسول له جرأته تجاوز حدود تحية جار ، فهى أحيانا تصدر أحكامًا مسبقة على بعض الأشخاص، وربما من النظرة الأولى ، ولسبب قد يكون غاية فى التفاهة، وفى حالة قنديل فقد بدا رأسه المغطى بشعر يشبه حبات الفلفل كافيا لاستدعاء هذه الملامح الخشبية إلى وجهها كلما مر بها ، ولم يشفع عندها أنه من كتاب الصحف، فهل تجاوزت معرفتها بعالم الصحافة أكثر من باعتها الذين يشغلون النواصى والأرصفة؟ وكذلك بدا لها محمد نبيل كشحاذ يخجل من مهنته، وإن اضطرت إلى إيقافه يوما لسؤاله أين يقطن؟ وكانت تعرف بالطبع أنه ممن يقطنون مع بائع الصحف ، ولكن الغاية كانت الوصول إلى معرفة اسم سعيد الدسوقى .

وكذلك تعرفت على الأسرتين اللتين تقطنان الشقتين بالطابق الثانى من البيت ، إحداهما هى أسرة عم فوزى التى تتكون من عدد لا يحصى من الأبناء ،وتساءلت كيف لأسرة من عشرة أفراد – على الأقل –

أن تقيم معًا فى تلك الشقة الصغيرة ؟ وعلى ما يبدو فكل أفرادها من العاطلين باستثناء الأب الذى يعمل فى أحد مصانع النسيج ، وبالتالى فليس غريبًا أن يكون مصدر الضوضاء فى البيت كله يصدر عن تلك الشقة ، فلا يمر يوم دون أن تثور المشاجرات بين أفراد تلك الأسرة بعضها البعض ، أما الشقة الأخرى- بنفس الطابق – فتقيم فيها أسرة هى نموذج محزن للمأساة ، فرب الأسرة وكان يدعى منصور الخياط، يمارس مهنته التى - كنى بها اسمه – فى دكان كان يستأجره بالعزبة ، وقد لقى حتفه فى مشهد مروع أسفل عجلات القطار أثناء عبوره السكة الحديد لشراء مستلزمات خاصة بمهنته ، لم تشهد عنبة الحادث ولم تكن قد سكنت بيت السقا حين ذاك ، ولكن مجرد روايته أمامها كافٍ لترويعها وفزعها ، ولم يكن مصرع رب العائلة هو المحنة الوحيدة التى ألمت بالأسرة ، إذ كان بكر عم منصور الخياط – الذى يعانى من شلل الأطفال – قد أصيب بمرض مزمن فى الكبد وكان نقله– كلما استدعت حالته– إلى المستشفى يتطلب شخصا قويا لحمله ، وكذلك تأجير سيارة لرواحه ومجيئه ، وهو عبء تتحمله أرملة عم منصور الخياط فوق ما تتحمله من أعباء .

أما الطابق الأرضى فقد أخلاه ورثة البيت عندما باعوا حصصهم إلى زوجها ، الذى هيأ إحدى شقتيه لسكن عماله المهرة ، بينما تحولت الشقة الأخرى إلى مخزن للأخشاب التى يحتاجها فى عمليات الهدم والبناء.



(12)

عرفت المعاناة طريقها إلى الست فوقية -أرملة منصور الخياط - منذ أصيب مولودها الأول بشلل الأطفال، وربما كان الجهل، وتقاعسها فى حصول طفلها على المصل الواقى، كانا وراء ذلك، فوزارة الصحة لم تكف يومًا عن تعريف الأمهات بأهمية تطعيم أطفالهن بالمصل، لتجنبهم الإصابة من هذا المرض، ولعلها أدركت جرم ما جنت على ابنها ونفسها عندما أصبح الصبى غير قادر على الحركة كأقرانه، وتحملها عبء حمله فى ذهابه ومجيئه إلى المدرسة، فضلا على حاجته إلى الخدمة الخاصة، وهو ما كان يقززها أحيانا، فكان أول ما حرصت عليه عندما رزقت بمولودتيها الثانية والثالثة، هو تطعيم المولود، وزيارة مستوصف الأسرة، وهى خدمات تقدم مجانًا للأمهات والأطفال، ثم جاءت الطامة الكبرى بمصرع زوجها أسفل عجلات القطار، وأصبح عليها تحمل عبء إضافى، وربما أكثر معاناة، إذ كان عليها تدبير قوت يومى لأربعة أفواه، تركهم عائلهم دون مورد رزق، إذ لم يكن لها من فن الحياكة بعلم، ولا كانت حالة ابنها الصحية تؤهله لاستيعاب مهنة الأب، وكذلك طفلتاها الصغيرتان،

وأحبطت محاولاتها فى تغيير نشاط الدكان من ترزي إلى بقال، إذ تصدى لها مالك الدكان حتى أجبرت على إخلاء محله، وما حصلت عليه من المالك، أو مخلفات الحياكة، جرى إنفاقهما فى أسابيع قليلة،

ولم يكن ما تلقته من تعليم يتجاوز غير قدرتها على كتابة اسمها، وهو ما جنى عليها، اذ طلب منها من وكلته لرفع قضية للمطالبة بالتعويض عن مصرع زوجها التوقيع على أوراق بيضاء استخدمت فيها بعد كمستندات أضاعت مستحقاتها، ومستحقات أبنائها، ولم يكن أهلها ذوي مال، فكان دعمهم لا يذكر، فعرفت طريقها إلى المسجد، ولم تكن جنيهاته القليلة تفي بحاجتها، ولأن النواة لا تسند الزير دائما، فكان لابد من البحث عن موارد إضافية، ولم تسمح حاجة أطفالها في وجودها الدائم بالبيت إلى طرق أبواب سوق العمل، وساق القدر فى طريقها لمعاونتها أشخاصا كان بعضهم لا يبغى غير مرضاة الله، وكان لآخرين بالطبع مطالب دنيوية، ولأن مقياس الجمال عند المرأة يختلف من رجل إلى آخر، فقد رأى البعض فى جسدها الممتلئ القصير جمالا لم يره غيرهم، بينما استشعر آخرون جمالها فيما تحمله من لقب أرملة لم تكن قد بلغت الأربعين، وغريزة الأنثى مهما تمثلت من قوة تنهار من طول الحرمان، خاصة إذا ما جاءت الدعوة من ذكر كان له الفضل فى حصولها على معاش استثنائي من وزارة الشئون الاجتماعية، وللإنصاف

فإذا كانت قد لبت مرة الدعوة مرغمة، فما أكثر الدعوات التى رفضتها،لا عن عفة لكن عن خوف من عواقب مبهمة قد تلحق ضررًا بسمعتها أو بأسرتها البائسة، وخصوصا مع إدراكها بأنها السند الوحيد لأبنائها فى هذا الزمان البغيض، فالإخوة والأخوات من الأهل أصبح لكل منهم شأن يغنيهم عن رعاية الآخرين،

حتى الزيارات المعتادة، وما يقال عن صلات الأرحام سارت أعباء يتجنبها الجميع، ففى هذا العالم قلما يجود إنسان بجود دون حاجة فى نفس يعقوب، وهى تعى بالطبع أن ما يراد لها أن تجود به للطالبين - وما أكثرهم- هو هذا الجسد الذى يحمل إعلان (أرملة فى الأربعين) ألا يطلب أحدهم ما تملك فى الحلال؟



(13)

تجدد الصدام مرة أخري بين المالك والسكان على أثر وصول شحنات جديدة من الطوب والأسمنت والزلط وأسياخ الحديد، إذ لم يعد من شك فى أن طابقا خامسا سوف يجرى إضافته إلى البيت، وحذر خميس بكر نفرًا من السكان:

- اليوم أصبحت أرواحنا مرهونة بموقفنا تجاه ما يحدث.

فقال قائل منهم:

- لم تعد محاضر الشرطة تجدى، فلا مفر من رفع الأمر إلى القضاء

فقال أحد المحبطين:

- هذا معناه توكيل محام، ولا قِبَل لنا بأتعابه

- هو عبء ولكن لا مفر لنا من تحمله

فعاد المحبط يقول:

- قد ينهار البيت فوق رؤوسنا قبل أن تتمكن العدالة من الاطلاع على القضية.

فقال أحد البؤساء:

- إذا انهار البيت فالحكومة ملزمة بتدبير مأوى بديل لكل منا

استشعر خميس بكر أن البعض قد ارتاح لهذا القول، فقال ساخرًا:

- أما زال البعض ينتظر الإنصاف من الحكومة؟

***

وما أن اكتمل بناء الطابق الخامس، حتى نما إلى السكان أنباء غير مؤكدة عن خلاف وقع بين المالك وزوجه، كانت الزوجة قد طلبت من زوجها أن يقدم دليلاً على صدق حبه ناحيتها، والدليل الذى ترتضيه هو إضافة اسمها كشريك فى ملكية البيت، ولكن الزوج رفض، وعد دليلها تجاوزا لم تجرؤ أى من زوجتيه السابقتين على طلبه، فقابلت الزوجة رفضه بخصومة لا قبل له على مقاومتها، فجلس عند قدميها فى محاولة لاسترضائها، وأقسم أن يؤول البيت وما يملك إلى المولود الذى ستهبه له، ففجعته فى لحظة غضب أسفت عليها كثيرًا:

- وماذا أن لم يكن منك وليد؟

استشعر بغصة مهينة، لكنه سرعان ما حاول التغلب عليها وهو يقول:

- لا عيب من ناحيتى، هكذا أكدت الفحوصات، وهكذا رأى الأطباء .

وعندما قرأ الأسف على ملامحها واصل مهدئًا:

- وإن لم يأت المولود منك جاء من غيرك

كادت تُذكره أن لها ابنا من زواجها الأول، ولكنها تراجعت واثقة أن ابنها من طليقها حاضر فى ذاكرته لا يفارقه قط، ورغم أنها قبلت بالتصالح مقابل تنازله بالبيع عن الشقة التى تسكنها لصالحها، فإن الغصة التى رمته بها سكنت وجدانه لا تفارقه، وكان قد تعرف إلى الشيخ بسيونى إمام مسجد العزبة القريب من البيت، وكان الشيخ ممن يتوددون إلى الرجل الذى كان سخى العطاء، خاصة فيما ينقص المسجد من مفارش للصلاة، أو تحمل تكاليف إصلاح وصيانة دورات المياه الخاصة بالوضوء، وكذلك تبرعات نقدية للفقراء والأيتام الذين يلتمسونها من إدارة المسجد، ورغم أن المعلم بخيت بيومى كان على ثقة أن الشيخ يناله شىء من نفحاته، فقد كان يرتاح إلى ما ينعم عليه به الشيخ من دعوات، وعلى أثر مشداته الأخيرة مع زوجه، رأى أن يستعين بالشيخ لتحقيق رغبته فى الزواج، فوجد ترحيبًا مشجعا منه.:

– اعرف رجلاً اقترن بدستة من النساء حتى نال مأربه، واليوم لا يستطيع حصر ذريته من الأبناء والأحفاد .

ثم تساءل الشيخ:

– هل تعرف أم نوال الخاطبة؟

– لا

– هى خير من نوكل للمهمة

وتعهد الشيخ باصطحابه لزيارتها، فطلب بخيت أن يجرى الأمر فى الخفاء .

(14)

كان سعيد الدسوقى هو أول من بدأ يلحظ أن تحولاً كبيرًا قد أصاب رفيق غرفته محمد نبيل، وقد اعتقد لتأخره الطويل خارج البيت – فى الفترة الأخيرة – أنه يعيش قصة غرام من تلك القصص التى يمر بها الشباب- أحيانًا – فى بدايات شبابهم، ولكنه استبعد هذا الاعتقاد حين رأى الشاب – على غير عهده به – يحرص على قراءة القرآن، وقد ابتاع مصحف جيب لهذا الغرض، وأحيانا كان يتلو ما تيسر له منه بصوت مرتفع، وبالتأكيد فإنه لم يعد يؤجل صلاته أو يؤخرها كعهده به، كما ترك لحيته إلى سجيتها حتى لامست صدره، وبدت ملامحه وكأنها لشخص آخر، فارتاب سعيد أن يكون رفيقه قد انتمى إلى تيار محظور أو جماعة من تلك الجماعات التى تلوذ بالدين كحل لأزماتها التى عجزت الحكومات عن إيجاد حلولٍ لها، وفى مقدمتها أزمة البطالة التى تحبط أبناء جيله، ولكن محمد نبيل أنكر ما يقول صاحبه، وتساءل مصطنعا الجهل:

– هل فى تلاوتى للقرآن وحرصى على أداء الصلاة فى المساجد ما يقلق؟

– معاذ الله، إنما مبعث قلقى هو أنك لم تعد أنت من عرفت.

فبرر حاله:

– أن على المرء أن يبحث لحياته عن معنى، وعلى الإنسان أن يتساءل كيف سيلقى يومًا خالقه؟

لم يتوقف سعيد كثيرا عند تبريره، إذ أن ما أصبح يقلقه بالفعل هى تلك الحدة التي أصبحت من شيمة صاحبه خاصة فى علاقتهما المشتركة، فصاحبه يثور لأبسط الأشياء، وإن تعلق الأمر بثوب خاص بسعيد علقه على مسمار من تلك المسامير التى تزدحم بها جدران الغرفة كشماعات لحمل الملابس، وكأن تلك المسامير أصبحت حكرًا على رفيقه، وشهدت الأيام التالية مزيدًا من الفراق بينهما، فقد كان الرفيقان يتشاركان فى طهى وجبة مشتركة تجنبهما وجبات المطاعم غير الآمنة، والأقل تكلفة، وأحيانا كان يشاركهما قنديل الملطاوى، ولكن محمد نبيل هجر مطبخهما وأصبح يكتفى بإعداد طعامه وحده، واحترم سعيد رغبة صاحبه، وبدأ يحذو حذوه، تجنبًا للاحتكاك، وعلى ما يبدو فإن الآخر لم يعدم كل السبل لافتعال أزمة جديدة، فذات يوم وسعيد يغط فى نومه العميق، انتفض على يد تلكزه بقوة، فرأى محمد نبيل بجلبابه الأبيض – الذى اشتراه حديثًا – يقف منتصبا أمام فراشه وملامحه تنطق بتحدٍ:

- قم لصلاة الفجر يرحمنا ويرحمك الله.

ولان درة عمر أهيب من سيف الحجاج - كما يقولون - فقد أطاع سعيد، وغادر فراشه الدافئ كاظمًا غيظه، فتوضأ على عجل متحملاً برودة الماء فى تلك الساعة من الفجر وهو يلعن سرًا ما أصاب صاحبه، وعندما غادرا البيت رأى سعيد صاحبه يقوده إلى عبور السكك الحديدية، فأستوقفه:

- إلى أين نذهب؟

- إلى المسجد

- أى مسجد؟

- مسجد فى شارع الترعة البولاقية، يؤمه شيخ فى تلاوته حلاوة، كما أن إمامته صحيحة، وليس فى عجلة من أمره كأئمة المساجد الأخرى

فتوقف سعيد فجأة عن تتبعه وهو يقول بحزم:

- سأصلى فى مسجد العزبة، وصل أنت حيث تريد.

توقف محمد نبيل وراح يرمقه بغضب:

- هذا فراق بيني وبينك

تركه يعبر وحده القضبان الحديدية، وعرج هو إلى مسجد العزبة وهو يلوم نفسه، أما كان الأجدر به أن يصطحبه ليطلع على سر من أسراره؟

وعندما عاد محمد نبيل من صلاته، كان سعيد قد سبقه إلى فراشه متقلبًا بين اليقظة والنوم، فبادره محمد نبيل وهو يمضى إلى فراشه:

-أن كانت الحياة لا تروق لك فى غرفتي فأبحث لنفسك عن غرفة أخرى

قال سعيد دون أن يغادر فراشه:

- نحن نتقاسم أجرة الغرفة وما يقوم على خدمتها ولكل منا فراشه فيها

ارتفع صوت محمد نبيل درجة وهو يخاطبه :

- هذه غرفتي استأجرتها من قنديل، وأنا من جاء بك إليها، وأنا من يحق له طردك منها

- لست متمسكًا برفقتك، ولكنني لن أغادر وفقا لرغبتك ما دمت ادفع نصيبى من الإقامة فيها

احتد محمد نبيل وهب من فراشه مشتبكا مع سعيد، فتصدى له مدافعا عن نفسه وقد علت الأصوات فهرع إلى غرفتهما قنديل قادما من غرفته، وما هى إلا لحظات حتى طرق خميس بكر بابهم مستطلعا الخبر.



(15)

منذ وصل خميس بكر إلى سن المعاش وهو يقضى نهاره وشطرا طويلا من الليل على المقهى، وهو مقهى عرف كيف يختار موقعه بامتياز، فقد كان يشغل الدور الأرضى من أول عمارة تحتل ناصية شارع جزيرة بدران مع شارع شبرا، وهى عمارة تشرف على ساحة كبيرة، تبدأ مع مدخل نفق شبرا وتطل على محطة السكك الحديدية الرئيسة، كما تعد المنطقة سوقا كبيرا نظرا لوجود عدد لا يحصى من محلات السلع الاستهلاكية، والمطاعم الشعبية، وهو ما يجعل حركة المارة فى نشاط لا يعرف النوم حتى بعد أن تغلق المحال أبوابها، فحركة القطارات تصل الليل بالنهار، وفضلا على موقعها الاستراتيجي -بالنسبة لخميس بكر - فروادها ليس بينهم وجه ممن يعرفهم فى العزبة، فغالبية الرواد من أصحاب المحلات المحيطة بالمنطقة، وقلة من المتقاعدين عن العمل فى ظل ما ابتكرته الحكومة من قانون المعاش المبكر، ولأنه صار من زبائن المقهى المعروفين فقد أصبح يعرف غالبية العاملين فيها، ويستطيع أن يفرق بين زبائن المقهى الدائمين والعابرين، كما أصبح له مقعد شبه دائم فى ركن من أركانه، وقد اختار ركنه بعناية ليطل منه على حركة المارة لقتل الفراغ الطويل، وأحيانا كان يصطحب كتابًا تحسبًا للملل من طول البقاء،

ولكن ما أكثر ما كان يعود بكتابه كما حمله دون أن تقع عيناه على سطر داخله، ورغم تعلقه الشديد بالمقهى فقد باتت تضجره الثرثرة المعتادة لمن أصبحوا ندماء مجلسه، كما يزعجه لاعبو النرد وأصوات ضربات قشات الطاولة ومكعبات الدومينو، وكان الأقرب إليه من ندماء مجلسه محاسبا بالمعاش يدعى أمين زكى، وإن كان لا يأتي إلى المقهى بصفة منتظمة، وكان أمين زكى هذا إذا ما جاء إلى المقهى اتخذ مجلسه -إذا ما تيسر- إلى جواره، وقد جاءه صبى المقهى بنرجيلته التى لا تفارق ليها شفتاه الغليظتان حتى يفارق المقهى، أو تظهر بائعة مناديل ورقية، اعتادت الحضور إلى المقهى والمرور ببضاعتها على الجالسين بغرض التسول، وقد تعلقت يد طفل فى نحو السابعة من عمره بجلبابها بينما يده الأخرى مبسوطة باحتراف ناحية الزبائن، ومن المؤكد أن خميس بكر قد قرأ مرات نظرات غير بريئة يجرى تبادلها بين أمين زكى وبائعة المناديل، إذ بعدها يغادر أمين زكى المقهى، بينما تستكمل بائعة المناديل وطفلها دورتها على الجالسين فى عجل، ثم تمضى فى أثره وهى تجر طفلها، وليس من ترجمة عند خميس بكر لما يراه غير أن موعدًا غراميًا على وشك الوقوع، لم يكن بوجه المرأة ملاحة رغم السن الصغيرة نسبيا، ولكن جسدها الممشوق مما يستهوى أصحاب الذوق الرفيع، ترى إلى أين يمضى بها أمين زكى ؟ هو لا يعرف عن حياته شيء، ومن السذاجة أن يتساءل أن كان يضاجعها أمام طفلها؟

بمغادرة نديمه وبائعة المناديل وطفلها، يعود بعينيه لمتابعة حركة المارة التي تستغرقه، ولكن الذهن الشارد يلقى أحيانًا بعتمة على عينيه فلا يبصر ممن يمرون أمامه شيئًا، ولكل ذهن شارد عالمه الخاص، ومنذ جاءت عنبة إلى البيت وهى تحتل خيالات عالمه، أما المستقبل فقد تحدد سلفًا منذ بلغ الستين، وما بين البيت والمقهى لا يوجد طريق ثالث، وكأنه قد رضى بخاتمة قد لا يعكرها غير خوف مبهم مصدره شيئان، الأول أن يصاب بمرض فى وحدته فلا يجد أحدا إلى جواره، وهو ما يجعله أحيانا يفكر فى زيارة أم نوال الخاطبة، والثاني انهيار مفاجئ للبيت الذى يؤويه، فمن أين له بمسكن بديل ؟ هذا إذا لم يباغته الانهيار وهو يغط فى النوم، أو كان قعيد الفراش ، اللعنة، للوحدة عيوب تساوى أحيانا محاسنها.



(16)

جاءه صوتها مناديًا من أعلى وهو يهبط درجات السلالم، فتوقف سعيد ونظر إلى ناحية مصدر الصوت، فوجد الست عنبة تقف أعلى درجة السلالم التى تؤدى إلى الردهة الفاصلة بين باب شقتها وباب الشقة المقابلة، والتى لم تكن قد شغلت بسكان بعد:

- نعم

اضطرب وهى تشير إليه ليصعد ناحيتها، فصعد بضع درجات قليلة فى حذر، وكانت تقول:

- سمعنا بالأمس أصوات وكأنها لشجار أتٍ من شقتكم.

كانت ترتدي جلبابا منزليا محبوكا بعناية إلى جسدها ولم يكن قد رآها بغير ما ترتدي من العباءات، فتجلت مفاتن أنوثتها لعينيه بصورة أكثر إثارة، فغض البصر فى حياء، وقال بسرعة وكأنه فى عجلة من أمره:

- نعم، كان هناك سوء فهم بيني والأخ محمد نبيل، واعتذر عما سببناه من إزعاج .

- سألتك للاطمئنان ليس أكثر.

تمتم فى صمت:

- شكرًا لك

وقبل أن يستدير ليعاود هبوطه استوقفه مرة أخرى صوتها:

- ما هذا الذى أصاب صديقكم؟ ولماذا أطلق لحيته على هذا النحو المفاجئ؟

عاد يتمتم:

- لا أعرف .

وواصلت لتبقيه مكانه:

- احترس من شروره، فقد أخبرني عم خميس أن جانا من العالم الآخر قد مسه.

ابتسم مؤكدًا:

- أظن ذلك.

وواصلت -مرة أخرى- غير عابئة باضطرابه:

- أراك مختلفًا تماما عن هذا المخبول، فلا تخشه .

أدرك أنها على علم بتفاصيل المشادة التى جرت بعد الفجر، وأن مصدر معلوماتها هو خميس بكر، فقال مبررًا:

- أنا لا أخشى أحدا، فقط أتجنب المشاكل التى تبعدنى عن دروسى .

فقالت برحابة:

- عدنى أختا لك، فإن تطاول هذا المخبول عليك فستجدنى إلى جوارك .

شكرها وهو يهبط درجة من السلالم، فجاءت مفاجأتها الكبرى:

- هل تحمل تليفونًا محمولًا؟

ولم تنتظر إجابته، إذ مدت يدها إلى فتحة فى أعلى جلبابها وأخرجت هاتفها المحمول، وقد تبدى لعينيه لحظتها انتفاخ نهديها البيضاويين، فأبتلع ريقه وهو يقول:

- أخشى أن يسألك أحدهم عن سبب وجود رقم هاتفى على تليفونك.

فقالت بثقة، وربما لتطمئنه:

- لا يجرؤ مخلوق على العبث بهاتفى .

***

لم يفارقه اضطرابه حتى بعد عبوره خط السكك الحديدية، وتساءل: ماذا تريد المرأة؟ أهي دعوة للتعارف؟ ثم راح يستعيد الموقف، وكانت أكثر مشاهده إثارة هو ما تجلى لعينيه من صدرها،

ترى أكان ذلك عفويًا؟ أم كان عن عمد؟ومرت بمخيلته قشعريرة كادت تسكره، ولكن سرعان ما تلاشت عندما تذكر زوجها ذا الوجه الصارم .

(17)

لم يعد قنديل الملطاوى يحتمل تلك المشدات اليومية التى تقع بين محمد نبيل وسعيد الدسوقى، خاصة أنها أصبحت تسبب إزعاجا للسكان، وتسيء إلى سمعته باعتباره المستأجر الأصلى للشقة، كان يستشعر – بالتأكيد – أن محمد نبيل يفتعل تلك المشدات للخلاص من سعيد لصالح رفيق آخر من ذات السلالة، وقد صدق حدسه فعندما زاره محمد نبيل بغرفته ذات مساء، يستأذنه فى قبول ساكن جديد بالغرفة، كان قنديل يدرك أن زائره ليس بالشخص الذى يقبل برفض طلبه بسهولة، أو الخلاص منه دون دفع تكاليف باهظة قد تصل إلى حد التشاجر بالأيدى، فقال محذرًا:

– إضافة ساكن رابع قد يمنح المالك سببًا لإثارة المتاعب؟

فأجاب محمد نبيل ببساطة:

– ليس للمالك علينا غير أجرته، ومادامت تصله كل أول شهر فلن تكون هناك متاعب إن شاء الله .

– شجارك الدائم مع رفيق غرفتك كافٍ لجلب المتاعب، فما بالنا إذا ما جاء ثالث إلى الغرفة؟

- شراكتنا في غرفة واحدة تلزمنا بنظافتها، وإهمال سعيد سبب كافٍ للشجار.

واجهه بالحقيقة:

- وهل اكتشفت إهماله فجأة؟

تساءل غاضبًا:

- ماذا تقصد؟

قال مؤكدًا:

- لن اسمح بطرد سعيد لصالح رفيقك الجديد .

ارتفع صوته درجة وهو يقول غاضبًا:

- أنا من جئت بسعيد، وأنا من يملك حق طرده، هذا إذا ما صح ما تزعم.

- وأنا من جئت بك، أو جاء بك من كان قبلك، وبهذا المنطق يحق لي طردك.

قال في تحدٍ:

- لا أحد يملك حق طردي، ولا أنت.

- أنا المستأجر الأول للشقة.

- ليكن، أين العقد المحرر بينك وبين المالك؟ إن إقامتنا جميعا محررة عرفيا.

كاد الجدل بينهما ينقلب إلى تشابك بالأيدى، ولكنهما تماسكا، إذ كان لكل منهما غاية يسعى إلى تحقيقها، فمحمد نبيل كان يريد إضفاء شرعية لوجود رفيقه الجديد بالغرفة، وبالتالي كان تحييد قنديل يستوجب عدم إثارة غضبه، ومن ناحيته كان قنديل غارقا في واحدة من همومه الغامضة، وقد كشف عن مدى انشغاله بهمه لمحدثه حين قال:

- أن لدى ما يشغلني عن مشاكلكما، لذا يجب الحصول على موافقة سعيد على وجود الشريك الثالث.

قال في غير رضا:

- لسعيد فراشه الخاص، أما رفيقي فسوف يشاركني فرشتى.

وفي اليوم التالي جاء الساكن الجديد، وقد بدا ودودا وهو ويتعرف إلى سكان الشقة، وعندما رآه خميس بكر وعلم أنه أصبح من سكان شقة جيرانه، همس في أذن قنديل متسائلا:

- أكان ينقصنا درويش آخر؟



(18)

كان قنديل الملطاوى صادقاً بالفعل عندما أخبر محمد نبيل بأن لديه ما يشغله، ففى الأيام القليلة التى تلت تلك الليلة، اتسمت طباعه بحدة لم يعتدها معه من عرفوه، وكذلك ما طرأ عليه من تدخين شره كان هو أول من انزعج له، ثم تحول هذا الشاغل إلى أرق قض مضجعه، فغادر غرفته والليل يكاد ينتصف إلى شقة صديقه العجوز خميس بكر، ولم يكن انتصاف الليل أو بزوغ نور فجر عائقا عند الشاب أو صديقه ليطرق أحدهما باب الآخر، فقد أصبح نهارهما ليلاً وليلهما نهارًا، فضلاً على تجاور المسكنين اللذين لا يفصل بينهما غير ردهة مساحتها بضعة أقدام قليلة، كان قنديل - على ما بدا لمضيفه - كمن يحمل أثقالا ويود أن يتجاهل سيطرتها على أفكاره، وبدت أثقاله غامضة لمحدثه، خاصة أنه لم يفصح من أمرها شيئا:

- ألا يوجد عندك دواء يفرغ الرأس من هواجسها؟

قال الرجل وهو يحمل الشاى إلى محدثه:

- بعض الناس يتخلصون من «زن» أفكارهم باللجوء إلى المخدرات كالبانجو مثلا، أما أمثالى فيجدون خلاصهم بالإفصاح عنها.

- هموم جيلى لا حصر لها، وكلها تتعلق بمستقبل شديد الظلام، خصوصًا لمن لا ثروة له، أو واسطة من صاحب سلطة.

- أما همومي فمصدرها امرأة

وجد الشاب فرصته فى تغيير مجرى الحديث فقال معلقًا:

- أراهن أنك تتحدث عن الست «عنبة» دون غيرها.

قال مؤكدًا:

- منذ جاءت إلى البيت وهى تحتل كل عالمى، وما يقلقنى أننى لم أعد أفكر فى أي شىء عدا الجنس، وهذه كارثة لرجل فى مثل سنى.

- الأدوية الحديثة أعادت الشباب لمن هم حتى أكبر منك سنًا.

- لعلك تصدقنى إن اعترفت أمامك أننى لم أجرب طوال شبابى شيئا خارج ما وهبتنى إياه الطبيعة، لا حبوبا أو دهانات قبل أن يخترعوا الحبوب الزرقاء، ويؤسفنى ما أسمع عن شباب فى عمر الزهور لا يمارسون الجنس دون استخدام هذه الحبوب التى تزدحم بها الصيدليات، وأتساءل ماذا سيفعلون عندما يتقدم بهم العمر؟

أجابه بضجر:

- لن يعجز العلم عن إيجاد بديل، فالحاجة دائما أم الاختراع

- لن يدهشنى إن جاءوا بعضو ذكرى بديل لعضو الرجل.

لم يعلق، ولاحظ الرجل شرود ذهن الشاب، فتساءل:

- شيء ما يشغل فكرك؟

قال بفتور:

- لا شيء أكثر من الهموم التقليدية لأبناء جيلى.

وسادت فترة من الصمت، تكاثفت خلالها خيوط الدخان المنبعثة من كثرة التدخين، ثم قطع قنديل الصمت متسائلا:

- هل تذكر حديثك عن هذا الراسكولينكوف؟ أكان هذا اسمه؟

- نعم

ولم يعلق، فتساءل خميس:

- ماذا عن راسكولينكوف؟

تنهد فيما يشبه الندم عن سؤاله:

- لا شيء.

ثم استطرد بعد هنيهة صمت:

- أريد استئذانك فى إعارتى تلك الرواية،إذ عندى حاجة لاستيعاب مشروع راسكولينكوف هذا دون تأثير من جانبك

ارتاب الرجل فى أمر صاحبه، ولكنه كان على ثقة من عجزه عن اتخاذ موقف يحسب له، فقال بسخرية:

– لا أعرف حاجتك إلى راسكولينكوف، ولكن قتل إنسان مهما كان سيئا لا يحل مشكلة، بل يزيدها تعقيدًا.

– وهل تعتقد أن هناك من أنوى قتله؟

– وإن كان، فلا تملك الجرأة، أو هذا ما أعرفه عنك.

قال قنديل جادًا:

– ولكنك لا تعرف أن بحوزتى وثائق تدين رجلاً قويًا فى هذا البلد

– إن كانت وثائق حقيقية فلا قوة لرجل تعلو فوق القانون.

– فى بلادنا يبتكرون القوانين وفقا لمصالح حكامنا، وبالتالى فمخالفتها يتم بجرة قلم، أو بسن قانون مضاد .

– هذا تبرير للتقاعس، وإن صح ما تقول فسوف يحسب لشجاعتك إذا ما نشرت ما بحوزتك من وثائق على الناس؟

– كأن النشر مباح .

– ما أكثر الصحف الخاصة فى هذا الزمان، وما أكثر قصص فساد الكبار التى تنشرها على قرائها .

– وإلى أين انتهت؟

– حتى وإن رموها فى صندوق القمامة، فسوف يجىء اليوم الذى تبعث فيه من جديد وتفضح صاحبها .

– أحسدك على تفاؤلك، وإن كنت لا أقبع مثلك فى انتظار الغد، وإلا كنت كمن ينتظر جوده .

– إنا بالفعل فى انتظاره، فنواطير مصر لم تعد نائمة عن ثعالبها حسبما قال المتنبي، فلو قدر للمتنبي اليوم أن يرى مصر لهاله أن نواطيرها أصبحوا هم ثعالبها.

– لا آمل فى غد، واليوم هو ما يعنينى، وما دمت تستعيد قولًا من ماض ، فسوف أحذو حذوك وأذكرك بما تغنيه أم كلثوم وأغنم من الحاضر أمن اليقين فقد تساوى فى الثرى راحلا غدا وماض من ألوف السنين

– هذا عمر الخيام

نهض قنديل فجأة، وقال وهو يمضى فى اتجاه باب الخروج:

– لا تنسى حاجتى إلى تلك الرواية

أراد خميس بكر أن يستوقفه:

- ولكنك لم تفصح عن ماهية وثائقك؟ ولا عن علاقة راسكولينكوف بها؟

غادره الشاب دون أن يجيبه، فواصل الآخر تساؤلاته.

- لقد فشل راسكولينكوف ، وفشل مشروعه لأنه كان مشروع فرد، وليس جماعة .



(19)

لطمت الست عنبة خديها وهى تخبر أمها.

– عاد بخيت للبحث عن عروس جديدة يا أماه.

كانت تحرص علي زيارة أمها التي تقيم بالزاوية الحمراء، كلما ضاق صدرها بما تختزن من هموم، وهي فرصة للقاء طفلها الذي يعيش مع والده «طليقها»، فيتم استدعاء الطفل لرؤية أمه، وتلقى هداياها، قالت الأم وهي تتنهد:

– هذا كان متوقعا

ثم أضافت مواسية:

– لا تبتأسي، فلا فائدة ترجى من زواجه، وإن ضاجع كل نساء الأرض.

تماسكت حتى لا تنساب دموعها أمام طفلها الذي تعود أن ينقل إلي أبيه ما يشاهده :

– هو لا يقر بعقمه، ويظن أن ما يتناوله من دواء فيه الرجاء، ما دام العلاج غالي الثمن .

راودت الأم ظنون :

- لعله يتلاعب بك

- لا، فهو لم يخبرنى بما أنتوى، ولكن جارا لنا رآه فى زيارة إلي بيت خاطبة معروفة في العزبة، وكان بصحبته شيخ الجامع .

ثم أضافت غاضبة:

- هذا الشيخ هو من يقف خلف قراره.

- قد تكون مكيدة من الجار؟

- لا، فهذا الجار فيه كل الثقة .

- تعرفين أن زوجك يتباهى بمساعداته للفقراء، ومن المحتمل أن الشيخ اصطحبه لهذا الغرض

- ليست من عاداته زيارة فقرائه ، فهباته تصلهم عن طريق وسطاء، كهذا الشيخ الذي يسلبه ماله باسم عمل الخير.

لوت الأم شفتيها وهي تقول معاتبة:

- وأنت؟ ألا تعرفين كيف تسلبينه ماله؟

أشارت إلى ما يزين ساعديها من مصاغ وهي تقول:

- هذا كل ما أمتلك، بالإضافة إلى دفتر توفير رصيده لا يتجاوز بضعة آلاف من الجنيهات، أما الشقة التى نقيم فيها فما زال يراوغ فى نقل ملكيتها لاسمى.

- هو لن يفى بوعده دون ضغوط نسائية لا أظنها تنقصك.

انتهزت فرصة انشغال الصبى باللهو بدمية أهدتها له، وهمست إلى أمها:

- أفكر في زيارة الخاطبة وتهديدها بفضيحة إن جاءت له بعروس

فقالت الأم بجرأة لم تكن تنقصها، أو كانت تنقص ابنتها:

- بل تهديد الشيخ هو الأجدى، فأمثاله يتحاشون ما يسىء إلى سمعتهم، وقد يجد نفسه مطالبًا بنصح صاحبه وهدايته

استشعرت راحة من اقتراح الأم ، وقالت راجية:

- لنؤجل ذلك حتى أتمكن من ملكيتى للشقة.

وافقتها الأم، وراحت تقول:

- وإن تزوج فلا أظنه يطلقك

- لا أقبل بامرأة تشاركنى زوجى

قالت الأم محذرة:

- تذكرى أنها تجربتك الثانية فى الزواج، والرجال لا يتزوجون من امرأة تعددت زيجاتها.

هزت ساعديها فأحدثت مصاغها رنينا موسيقيا:

- الرجال يلهثون خلف هؤلاء.

ثم هزت جسدها فحركت نهديها فى حركة شبه راقصة وهى تستطرد:

- وأكثر من هؤلاء من يتمنون هذا.

(20)

لم تكن من عادات عنبة- كلما زارت أمها في الزاوية الحمراء- أن تغادرها، قبل أن تقضي شطرًا من الليل في صحبتها، وصحبة صغيرها، ولكنها في ذلك اليوم كانت في عجلة من أمرها، فغادرت من بيتها إلى شادر السمك القديم، حيث كان ينتظرها سعيد الدسوقى.

كان هذا هو لقاءهما الأول، وقد سبقته محادثات تليفونية طويلة، عرفت المرأة من خلالها كيف تدفع بالفتي الخجول إلي شباكها، ودون جهد يذكر، فلم تكن تنقصها التجربة أو الخبرة، فى مواجهة فريسة لا قِبَل لها بفخاخ الصياد، وربما ساعدها أن الفريسة ذاتها كانت تتوق للفخ المنصوب، إذ كان يكفى في حديثها مع الفتي أن ترمي بكلمات تحتمل- عند المراهقين- تأويلات جنسية، إذا ما أخرجوها عن سياق الجملة التى وردت بها، ويصبح للكلمات في خيالاتهم سحر يستدعي شهواتهم الجاهزة علي الدوام للتقلب علي جمرات النساء، فمن المؤكد أن سر الكيمياء الذى يدفع بالذكور ناحية الإناث لا يكمن في جهازهن التناسلى فحسب، فجزء من هذا السر يكمن فيما تحمله لغتهن من معانٍ غير المعانى الحرفية للكلمات، وهى آفة هذا الجيل،

فمنذ استوقفته على السلالم وطيف نهديها اللذين وقعت عيناه عليهما يشاركانه فراشه ويؤرقان مضجعه، ثم جاءت كلماتها المثيرة عبر الأثير لتزيد من عذاباته، فما أن يأتيه صوت رنين هاتفه حتى يهرع إليه، أو يمضى به خارج الغرفة إن كان شريكه موجودا داخلها، فينصت متحليا بصبر أيوب إلي ثرثرتها الطويلة في انتظار كلمة ترد - بقصد أو بغير قصد - وسط حديثها، فيتلقفها خياله ويمضى بها إلى حيث يشتهى من معانٍ تثير داخله مشاعر اللذة وما ينشده الخيال:

- منذ رأيتك قلت رب أخ لم تلده أمى، وهى بالمناسبة لم تلد ذكورا، فرأيت فيك الذكر الذي أحتاج إليه، فنحن نعيش زمانا نفتقد فيه إخلاص الناس بعضهم البعض، فهل تصدقنى أننى أستشعر هذا الإخلاص في الحديث إليك؟

ظلت كلمة (ذكر) تطن داخله حتى وهى تستطرد:

- إن الصدق فى القول هو دليل الإخلاص، وهذا الإخلاص أقرأه في تلك البراءة التى تتجلى فى وجهك، وهي براءة افتقدها بعيدًا عنك

ترى هل حمل الأثير إلى أذنها صوت أنفاسه وهى تتلاحق؟

- لست فضولية ناحية الغير، ولكنك قليل الكلام، فكيف نعرف بعضنا البعض أن ظلت ملابسنا تخفى ما تحتها؟

تملكته جرأة فقال:

- لم أر جسد امرأة بلا ثياب قط، ولكن ما أن أغمض عينى حتى ترسمه خيالاتى كما أشتهى.

ضحكت مصطنعة الحياء:

- لقد أسأت فهمى، فليست هذه دعوة للتعرى، وإنما قصدت أن أدعوك بدافع من الفضول إلى أن أعرف عن حياتك وأسرتك ما لا أعرف.

تراجع بسرعة وراح يقول:

- عندي أخوات ثلاث غير شقيقات، ولكنني لم أعش بينهن، ولا أتذكر وجه أمي فقد ماتت مبكرًا، والمرأة الوحيدة التي تعاملت معها، فارق السن بيننا يصل إلى نصف قرن، وهى جدتى، واستأذن أن أقتبس عنك القول المأثور رب أخت لم تلدها أمى، إذ كم اشتاق إلى أخت؟

حاصرته دون حياء:

- ولكن خيالاتك التى تصور لك أجساد نساء عاريات، تنبئ بشوقك إلى المرأة باعتبارها امرأة، وليست باعتبارها أختًا .

استشعر اضطرابا فراح يعتذر بتلعثم، فتجاهلت تراجعه وهى تواصل حصاره:

- وكيف تراهن؟

- من؟

- نساء خيالاتك .

لم يجرؤ على النطق، فواصلت فى غير ما حياء:

- قد تتشابه النساء، ولكن ليست كل امرأة أنثى .

قال على الفور وبسذاجة تناسب عمره:

- هذا ما يقول به عم خميس.

جاءته ضحكتها عبر الأثير مجلجلة حتى دمدمت مشاعره، وواصلت:

- هو عجوز محنك، مادامت مثل هذه الأحاديث تدور بينكما، فأسأله عن الفارق بين امرأة جرى ختانها، وأخرى لم يمسسها مشرط الجراح؟

هرع خياله خلف قولها حتى عجز عن النطق، ولعلها أدركت مغزى صمته، فقالت محذرة:

- إياك أن تذكر اسمى عند هذا الذئب، فعيناه تكادا تعرى جسدى، كما أن يديه تنطقان بشهوته كلما مدهما لتحيتى.

قال على الفور:

- أرجو أن تثقى أنك تتحدثين إلى أخ مخلص، وليس إلى صبى يلهو باللغو المشين.

قالت بثقة :

- هذا قول يحسب للرجال، ولولا ثقتى أن أخى رجل ما أفضت عنده بغير تحفظ فى أمور لا يصح لامرأة أن تثرثر فيها عند غريب.

- وهل تعديننى غريبًا؟

- بل أخ عزيز.

أضاف مستطردا:

- أخ وصديق، وكذلك أنت أخت وصديقة .

- لا بأس بشرط أن نكون أخين أولاً، فالأخ لا يتخلى عن أخته مطلقا، وإن تخاصما فإن أحدهما لا يقبل بالضرر للآخر؟

قال مؤكدًا:

- من ذا الذى يجرؤ على الضرر بك! هل تصدقيننى إن اعترفت أمامك أن أجمل ساعات يومى هى تلك التى أنصت فيها إلى كلماتك؟

أطربها اعترافه، فواصلت:

- يا له من اعتراف ثمين، ولكننى أخشي أن تسىء فهمى مرة أخرى، فالحوار على هذا المنوال لا يصح بين أخوين .

- ليكن، فنحن صديقان أيضًا.

ضعف صوتها درجة وهى تقول:

- أخشى أن ترى الحوار وكأنه حوار بين رجل وامرأة؟

قال بشجاعة طارئة:

- ليكن، ألسنا رجلاً وامرأة؟

قالت بذات الصوت الضعيف وهى تضحك فيما يشبه الخجل:

- يا لك من شيطان؟

هل ذاق النوم منذ ذلك التاريخ؟

***

كان يقف علي مقربة من شادر السمك القديم فى انتظارها، وعيناه ترقبان الطريق القادمة من ناحية الزاوية الحمراء، ولا يعرف لماذا داهمه اضطراب مفاجىء، وتساءل: كيف بلغت به الجرأة على طلب لقائها؟ وكيف اغتبط لموافقتها؟ ثم انقلب متشككا فى سرعة استجابتها؟ واستوجب طوال الانتظار طرح مزيد من المخاوف، ماذا لو ضبطه زوجها - ذو الوجه الصارم - وهو بصحبتها؟ هذا الوافد من بيئة قانونها الثأر، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالنساء،

هل يمنحه فرصة للتفسير؟ أم يحل دمه مكتفيا بدموع امرأته؟ أف، لماذا انساق خلف ما لا يحمد عقباه؟ ثم حاول استعادة رباطة جأشه وهو يتساءل: لو كان العم خميس مكانه ترى أكانت تراوده ذات الهواجس؟

وتوقفت تساؤلاته عندما تبدت المرأة لعينيه وهى تجتاز الطريق، ولكن الهواجس ظلت كامنة فى باطنه.



(21)

كان قنديل وسعيد ينصتان باهتمام إلي صديقهما العجوز وهو يقص عليهما ما رأى وهو يمضي إلى زيارة أم نوال الخاطبة، كان لقاء الأصدقاء فى غرفة قنديل، وكانت خيوط الدخان التى تنسجها سجائر خميس بكر تتكاثف وتملأ المكان، فالرجل لا يكف عن إشعال سجائره الواحدة تلو الأخرى، وكان قنديل يشاركه - أحيانا - التدخين:

- ما كدت اقترب من باب بيت أم نوال ، وهو بيت في حارة ضيقة تتفرع من درب السكك الحديدية، حتي فوجئت بالشيخ بسيونى يتأبط ذراع المعلم بخيت كصديقين وهما يغادران مسرعين باب بيت المرأة أو كأنهما وهذا هو الصحيح لصان يخشيان ظهورا مفاجئا لشرطى، ولأننى كنت مثلهما أحرص على ألا يرانى أحد ممن يعرفوننى، فقد تواريت عن عيونهما، ولكن ما أن تجاوزانى حتى بدأت أتساءل عن سبب زيارة الرجلين للمرأة، وفى عقر دارها ؟ وربما خطر على بالى لحظتها - ولسوء ظن بالمعلم والشيخ- أن الزيارة لعقد صفقة تتعلق برغبة الأول فى شراء بيت الخاطبة، وأن الشيخ ما هو إلا وسيطا بين البائع والمشترى، ولكن المرأة نفت أن تكون زيارة ضيفيها لأمر يتعلق بالبيت، وأن فكرة بيع بيتها غير مطروحة مطلقا للنقاش،

وأضافت أن سبب الزيارة الميمونة، هى تفويضها - بحكم مهنتها المعروفة - في البحث عن عروس للمعلم، لم أصدق أذنى، فهل هناك عروس يمكن أن تأتى بها أم نوال أجمل من عنبة، أترى الرجل زير نساء؟ ولكن المرأة فضحت ببساطتها المعتادة المستور، فقد أخبرتنى أن الغاية من زواج المعلم هى من أجل الإنجاب .

قاطعه سعيد متسائلا:

- وهل امرأته عاقر؟

لم يخفِ خميس شماتته وهو يستطرد:

- هذا ما ظننته لحظتها، ولكن عنبة أخبرتنى ذات يوم أنها أم لصبي من زواج سابق ، بينما لا أبناء للمعلم، رغم زواجه من امرأتين سابقتين عليها ؟

علق قنديل متسائلا:

- إذن فأنت من نقل إلى الست عنبة الخبر؟

قال مؤكدًا وهو يضحك:

- بالطبع، وما كنت أتأخر عن نقل ضرر لحق بهذا الانتهازى للحظة واحدة، ولا أخفى عنكما كم كنت متلهفًا علي مقابلتها ؟ وما أن رأيتها تغادر البيت حتى تابعتها، وكانت في طريقها إلى الزاوية الحمراء حيث تقطن أمها، فاعترضت طريقها وكأن لقاءنا جاء محض مصادفة، واخترت أن أرمى عندها بالخبر وكأنه تحذير من صديق لصديق.

فقال قنديل وكأنه يخيفه:

- لن يغفر لك زوجها فعلتك؟

قال فى لا مبالاة:

- ليكن، فما يعكر حياة الانتهازيين الجدد يرضينى ، وإن كنت أتشكك أن تكشف له عن مصدرها؟

فتساءل سعيد:

- وكيف تلقت المسكينة الخبر؟

- ربما فوجئت؟ ولكنها كانت-على ما بدا لى- تنتظره، إذ كانت متماسكة تماما، فلم تنهار، غاية ما قرأته على وجهها، أن ملامحه تبدلت من الصفاء إلى الغضب، وهو غضب ينبأ بثورة انتقام آتية، إياك وأن يستهين أحدكم بانتقام امرأة؟

- ترى ما الذى يمكن أن تفعله؟

تجاهل السائل والسؤال، وقال كمن يهمس إلى نفسه:

- ترى هل تقبلنى المرأة زوجا أن انفصلت عن زوجها؟

فتساءل سعيد على الفور:

- وهل يطلقها؟

قال بحسرة وبذات النبرة الخافتة:

- لا أظن، فعنبة أنثى لا تجدها فى فاترينة أم نوال، فكل بضاعة أم نوال هى من صناعة بير السلم .

علق قنديل ساخرًا:

- ما عنبة إلا امرأة ككل النساء، ويدهشنى هوسك بها وكأنها تختلف عن بنات جنسها، ألا تتشابه كل النساء فى الظلام؟

تضايق خميس فقال ساخرًا:

- قال أحد الحمقى يومًا أن كل النساء تتشابه في الظلام، وكأن الضرير لا يفرق بين مذاق التفاح ومذاق الجميز؟

قال سعيد فجأة:

- قد تتشابه أجساد النساء، ولكن الأنوثة شيء مختلف.

استلفتت مقولته انتباه قنديل فعلق وهو يتحدث إلى خميس:

- وماذا عن سبب زيارتك أنت للخاطبة؟

ضحك في بلاهة، وهو يقول:

- خطأ تم تداركه سريعًا؟

فتضاحك الشابان وقد شاركهما خميس دون تعليق.



(22)

منذ جاء محمد نبيل بالشريك الثالث إلى الغرفة، وهو موضع تساؤل من السكان، فأول ما يستلفت النظر إلى عبدالله - وهذا اسمه - هى تلك اللحية الفحمة التى تضفى وسامة على ملامحه الهادئة، وأيضا طوله الفارع وجسده العريض، وكذلك شخصيته التى تبدو ودودة، خصوصا فى تقربه إلى الناس، وهو أول ساكن من شقة العزاب يخرج على الشروط التى ارتضاها والتزم بها كل من سكنوها، فقد شوهد مرات وهو يحمل المريض من شقة عم منصور الخياط بصحبة أرملته، ويمضى بهما إلى المستشفى، كما ذاع صيته كالبرق فى المناسبات الدينية، فقد كان يحمل فى كل مناسبة إلى مسجد العزبة أكياسًا من المواد الغذائية لتوزيعها على فقراء اعتادوا اللجوء للمساجد فى تلك المناسبات، وقيل إنها هبات من فاعل خير له صلة بالشاب الذى أصبح يلقب بالشيخ، وليس غريبًا أن إقامة الشيخ الصغير بالغرفة لم تلق معارضة من مالك البيت، فبينما كان المالك يعد العدة لإقامة الطابق السادس، لم يتردد الشيخ الصغير فى تهنئته والدعاء باكتمال البناء فى سلام، ووجدها المالك فرصة لضم الشيخ إلى صفه ضد المحتجين على مشروعه الكبير:

- ولكن بعض الناس لهم رأى مختلف؟

فقال الشيخ مؤكدًا:

- هذا بيتك، وما دمت قد اشتريته من حُر مالك فلا سلطان لأحد على ما تصنع، فالمحتجون إما حاقدًا، وإما غير مدرك أن ماتصنعه سيعود بالنفع على من هم يحتاجون إلى مساكن مثلهم؟ أليس ما تبنيه سيشغله آخرون؟

- بالطبع.

- إذن امض والله معك، ولاتنشغل بحسد الحاسدين، ولا بحقد الحاقدين، واقرأ المعوذتين، والله خير الحافظين، فقط لا تسمح لنصرانى بالإقامة بيننا؟

استشعر قلقًا من جملته الأخيرة، فقال مؤكدًا:

- بيتى مفتوح للجميع، مادام قادرا على الدفع؟ لست متعصبًا، ولا أتعامل مع الناس وفقا لدياناتهم؟

- ولكن النصارى ليسوا منا ولسنا منهم.

- هذا وطن للجميع، فهم ولدوا مثلنا على أرضه، ويعيشون مثلنا أزماته وانكساراته، فرجاء ألا تعمل على ما يقسمنا إلى أغلبية وأقلية أو أبيض وأسود.

قال الشيخ الصغير مقاطعًا:

- هذا حديث لم يحن زمانه بعد، وليكن اتفاقنا المشترك هو بيتك الذى يحمل الخير للجميع.

رغم عدم اتفاقهما المشوب بالقلق، أثلجت كلمات الشيخ الأخيرة صدر مالك البيت، فرجاه أن يتحدث إلى خميس بكر،عله يكف عن تحرير المحاضر وكتابة الشكاوى وتحريض السكان، ولسبب ما استشعر الشيخ عبدالله أن الحديث إلى خميس بكر مهمة صعبة لما عرفه عنه من زميله محمد نبيل، فبادر بالقول:

- هذا الماركسى العجوز لا يحمل غير الضغينة لكل نجاح، فالماركسى فى الأصل رجل ملحد لا دين له، فلا يصدنك عن عملك نباحه المشين؟

وفى أول مواجهة بين الشيخ والعجوز اتهم خميس بكر الشيخ بأنه يبرر للمالك جريمته، فاحتج الشيخ صائحًا:

- هل المساهمة فى حل مشكلة الإسكان فى رأيك جريمة؟

- وهل الحل يكون بالبناء فوق بيت آيل للسقوط؟

- هذا بيت صلب، وقد عاينت حوائطه، وهو إن شاء الله يتحمل المزيد من الأدوار؟

- وهل أنت مهندسًا لتقرر مدى صلابته؟

أجابه قاطعًا:

-الرجل يحمل ترخيصًا بالبناء، وهو كافٍ للاطمئنان

– ومتى عجز صاحب مال عن الحصول على ترخيص بناء، أو حتى شهادة فى الطب؟

ضاق الشيخ بالعجوز:

– لن يغير ما تفعل من الأمر شيئا.

– أنت محق، ما دمت تطلب من السكان اللامبالاة تجاه ما يهدد أرواحهم.

اشتد ضيق الشيخ فقال حاسمًا:

– الروح ملك خالقها، ولن يموت إنسان قبل أن يحل أجله قط.

– معسول كلامك قد يصرف الناس عن رؤية ما يتهددهم.

– لا خطر ألبتة من إضافة طابق أو طابقين إلى البيت، فلا تكن حجر عثرة فى الطريق .

قال الشيخ كلمته وتأهب للرحيل، ولكن خميس أصر على تساؤله:

– من أين جئت بكل هذا الاطمئنان؟

– ومن أين جئت بمخاوفك؟ أو بالأحرى مزاعمك؟

ثم استكمل وهو يغادره:

- ليتك تترك كل هذا وتعتكف إلى مسجد، إن لم تتقرب إلى الله فى تلك السن فمتى تتذكره؟

ودعه خميس بكر بما لم يصل إلى مسمعه:

- لو كف أبو جهل عن الإدلاء بدلوه فى الهندسة الوراثية لصلح حال هذا البلد .

توقف الشيخ عن طريقه فجأة، واستدار إلى محدثه وهو يتساءل بغضب:

- ماذا تقول؟

لم يهتز الرجل، فواصل متحديًا:

- كنت أتساءل عن علاقة أبى جهل بدراسة الجينات؟

تنهد الشيخ الصغير وواصل طريقه آسفا.



(23)

مضى وقت طويل قبل أن يأتيه صوتها المثير عبر هاتفه المحمول:

- ما شغلني عنك غير خناقات مع زوجي حتى كادت علاقاتنا تنتهي إلى الطلاق؟

انقبض صدره وهو يتساءل:

- هل علم بلقاءاتنا؟

أزعجها قلقه المفاجئ:

- ماذا تقول؟ المسألة تتعلق بملكيتي للشقة التي أقطن فيها؟

استعاد أنفاسه، فواصلت:

- ما بيننا لا غبار عليه، ولكن يحزنني هذا القلق الذي يصيبك كلما التقينا؟

- هذا القلق مبعثه الحرص عليك، وليس الخوف من أحد؟

تظاهرت بتصديقه، فتساءل:

- وإلى أين انتهت الخناقة؟

جاءته ضحكتها المثيرة:

– للمرأة أسلحة خفية تخور أمامها عزائم الرجال .

آمن على قولها رغم شعوره بالغيرة، ثم أضاف:

– إذن أصبحت من الملاك؟

قالت فى غير ما رضا:

– إنها مجرد شقة، أما أملاكه الحقيقية ففى قبضته، وهيهات أن ينالها غير وريثه الذى لن يولد أبدا؟

لعلها أسفت على ما بدر منها، ولكنها تجاوزته عندما تساءل:

– أما أن لنا أن نلتقى؟

قالت بدلال:

– أما زلت ترغب فى لقائى؟

– لا معنى لشىء اليوم عندى دون لقائك، أو الإنصات إلى كلماتك.

أطربها قوله، فرمت بغاياتها:

– لم يعد التسكع فى الطرقات يجدى، فلا مناص من اقتناص فرصة تتيح لنا حرية اللقاء.

شعر باضطراب مشوب برغبة حارقة فى حاجته إلى تلك الفرصة التى عليهما اقتناصها:

- كيف؟

- حسبما علمت فإنه سوف يغادر فى الأيام القليلة القادمة إلى عمل فى مدينة السويس قد يضطره إلى المكوث هناك بضعة أيام؟

واتته شجاعة طارئة فعبر عن اشتياقه:

- أيام قليلة هى دهر ثقيل إلى لقائك.

عادت ضحكتها تجلجل حتى أسكرته:

- هاهو أبا الهول يخرج على حكمته.

- الفضل يعود إلى المرأة التى وهبته الروح.

- أصدق ما تقول، رغم أننى استشعر أنه حوار مقتبس عن أفلام السينما .

- عندما تمس النار الإنسان فإن ألمه يصبح حقيقيا وليس ادعاء

فتساءلت بصوت كأنه الهمس:

- كأن النار لم تمسسك من قبل؟

- ذلك أننى كنت بعيدًا عنها كل البعد، لا رغبة فى عفاف، وإنما عن حياء زرعته داخلى جدة هى كل ما عرفت من النساء .

- وماذا عن زميلات الجامعة؟

- ما رأيته منهن كاف لتجنب طريقهن؟

- كيف؟

- لكل زميلة عدد لا يحصى من الرفاق.

فقالت دون حياء:

- إذن أنت مازلت بكرا؟



(24)

فوق أحد قضيبى السكك الحديدية توجد عربة من عربات القطارات مهجورة، ولا يعرف أحد لماذا تركتها هيئة السكك الحديدية فى هذا المكان؟ ولعل الهيئة إذا ما قدر لها - يوما - أن تقوم بجرد ممتلكاتها، فسوف تكتشف عجزا فى أملاكها، وربما بالبحث والتحرى ستهتدى إلى هذا العجز؟ وقد يتساءل أحدهم عن السبب الذى جعلهم يتركونها كل تلك السنوات فى هذا المكان؟ ولعل بعض الخارجين على القانون استفادوا من وجودها كمأوى يصلح للمبيت أو الاختباء؟ أما خميس بكر فقد رأى فائدة أخرى للعربة، فوجودها فى هذا المكان النائى يشجع على اعتبارها ماخورا يمكنه من اصطحاب بائعة المناديل الورقية إلى داخله، خاصة أن التفاهم بينه وتلك المرأة أصبح ممكنًا، وعندما أسر إليها برغبته اشترطت الحصول على أجرتها قبل أن تمضى معه، ولكنه تشكك فى التزامها، فوهبها نصف الأجرة مقدما والنصف الآخر متى فرغ من حاجته، ومع غروب الشمس غادر مقهاه وهى تتبعه، وقد تركت ما تحمل مما تبقى من بضاعتها فى عهدة الصبى، ترى هل يعلم الصبى بسرها؟ وعندما صعدا إلى «الشرم» بدا الطريق آمنا من المارة، فامسك بيدها وهما يمضيان ناحية العربة، كان الظلام قد غطت ستارته المكان، فسبقها فى الصعود إلى داخل العربة،

وقبل أن يمد يده ليساعدها إلى الصعود، استشعر حركة مريبة فى الداخل، فتوقف ليستطلع الأمر، فبوغت بشبح رجلين يتأهبان لملاقاته، فصاح محذرا المرأة فتراجعت مسرعة، وقبل أن يهم بالنزول كانت قبضة أحد الشبحين قد استوقفته، بينما كان الآخر يقفز إلى خارج العربة للحاق بالمرأة التى كانت قد أطلقت ساقيها للريح فى اتجاه «الشرم»، بينما خارت قوة خميس بكر مع قبضة الشبح الذى بوغت بظهوره:

- لا تصيبنى بأذى، أنا رهن ما تريد؟

هكذا صاح خميس بكر عندما فوجىء بالرجل يستل مطواة فى مواجهته:

- الويل لك أن عاد رفيقى بدون المرأة؟

ثم دفع به الرجل إلى داخل العربة، فأطاع دون مقاومة، كان الظلام أكثر سوادا فى الداخل، فزاد من اضطرابه، واستشعر تلا من القمامة يعوق حركته فحاول تجنبه، ولكن خصمه لم يمهله، إذ أمره بالجلوس فجلس وهو يقول متوسلا:

- قد يكون المكان مأوى لحشرات خطيرة؟

- وكيف كنت ستضاجع المرأة؟

لاذ بالصمت وراح يتململ فى جلسته حتى ظهر الرجل الآخر دون المرأة، فتنفس الصعداء والرجلان يتخاطبان:

- احتمت الملعونة بالناس
- أنت لم تحسن العدو
- مازال فى حوزتنا شريكها

خاطب المطارد الفريسة:

- انهض ؟

نهض على الفور وهو يقول:

- استأذنكما فى الرحيل بسلام؟

حاصراه غاضبين وقد بادره المطارد:

- من أين جئت بالمرأة؟
- من الطريق العام؟
- كاذب، أن لم تخبرنا بالحقيقة مزقت جسدك.

- ليس هناك ما يدعونى إلى الكذب، فالمرأة لا تمت إلَيَّ بصلة ما، وما أكثر المتسولات فى الطرق .

تساءل الرجل الأول:

- من أخبرك بأمر هذا المكان؟

- أنا أقطن قريبًا منه، وكان دائما بلا سكان .

لعلها كانت أطول ليلة فى حياة خميس بكر، ولكنها انتهت بإطلاق سراحه بعد تجريده مما يحمل من نقود قليلة، ولكنها كانت كافية حتى موعد استحقاقه للمعاش التالى،

ولم يكن أسفه على نقوده يساوي حزنه الشديد على ساعة يده التى صادرها اللصان غير عابئين بقيمتها التاريخية لصاحبها.

(25)

رغم الخسائر المادية والتاريخية، حمد الله على خروجه من الورطة دون إصابات دموية لم يكن النجاة منها سهلاً، إما الخسارة المالية فعلاجها وارد متى فتح مكتب البريد بابه فيسحب شيء من مدخراته، أما الساعة فلن يعوضها شراء أخرى، فلتلك الساعة ذكرى كثيرًا ما يستعيد أجواءها، وهو يتذكر الدكان الذى ابتاعها(*) منه فى شارع السوق بالمنصورة، إذ كان الدكان أسفل بيت عتيق ما أشبهه ببيت السقا، وإن كان عليه أن يهبط درجات قليلة من سلم للوصول إلى الدكان، وربما كان هو الدكان الوحيد فى المنصورة الذى يتميز بواجهة زجاجية، ومازال يتذكر عم دميان صاحبه، إذ كان عم دميان هذا أقزم رجل فى المدينة وربما فى العالم كله، أو هكذا كان يعتقد، وكانت زوجة دميان تحمل طعام الغداء كل يوم إلى زوجها، وكان هذا شأن معظم زوجات أصحاب الدكاكين فى ذلك الزمان، وعندما قدر لخميس بكر رؤيتها هاله طولها الفارع،

(*) **ابتاعها** : اشتراها .

فتساءل كيف يتضاجعان؟ وأصبح يكنى الزوجة وزوجها بجيلفر والقزم، ووجد نفسه يتردد على الدكان متى رأى جيلفر تحمل الغداء إلى قزمها الصغير،

وكانت حجته رغبته فى شراء ساعة يقسط ثمنها إلى دفعات شهرية، ولما كان شعار دميان المرفوع فى مواجهة عملائه الشكك ممنوع

وكذلك البيع بأجل، فقد اضطر خميس إلى عقد أغرب اتفاق مع بائع، إذ كان العقد ينص على تسديد ثمن الساعة على إقساط ، على أن تبقى الساعة فى حوزة البائع حتى اكتمال كامل الثمن، وهو ما حدث بالفعل، وهو يتذكر يوم أن زينت الساعة معصمه، كانت عيناه ترقبان عقاربها ربما كل دقيقة، وينتابه شعور بالتيه متى سأله أحدهم:

- كم الساعة؟

وكانت إجابته تشمل التوقيت بالساعة والدقيقة وأحيانًا بالثانية، ورغم أنه كان يعد من الصعاليك فقد أصبح للساعة شأن فى حياته، فإذا حدد موعدا لأحدهم فستجده أكثر انضباطا من مواعيد القطارات

حتى إذا ما تجاهل الطرف الآخر قيمة التوقيت، ومن الغريب أنه لا يذكر أن ساعته المسلوبة قد أصابها عطب منذ ابتاعها من دكان دميان على حين أصابت بج بن الأعطال، وا أسفاه؟

كان يستعيد ذكريات ساعته وهو يمضى إلى البيت، ود أن يعود إلى المقهى ليطمئن على بائعة المناديل، ولكنه تذكر جيبه الخالى، لابد أنها بخير ما دامت قد نجحت فى الهرب؟ آه لو كان مطاردها قد أمسك بها؟

وعندما وصل إلى البيت فكر فى زيارة قنديل، فمن غيره الساعة يمده بالسجائر التى لا يقوى على هجرها ولو ساعة واحدة؟ أما كان لسارقيه أن يتركا سجائره لينفس بها غضبه المكبوت؟

(26)

زاد ضيقه عندما لم يجد قنديل فى غرفته، وفى الغرفة الأخرى لم يكن غير الشيخين اللذين لا ود بينهما، حتى سعيد لم يكن بينهما، فتراجع إلى شقته، وراح يقلب بين كتبه المتناثرة حتى شعر بالملل، فآوى إلى فراشه دون أن يغير ملابسه، ما كان لمن فى مثل عمره التورط باصطحاب امرأة إلى مكان كهذا؟ إلى متى يبقى الإنسان عبدًا للغريزة؟ متى نرى حكومة تقر بالصداقة بين ذكر وأنثى دون حاجة إلى قيود الزواج؟ لو عاد الزمان إلى الخلف أكان يتزوج وينجب الأولاد؟ أحيانا يحمد الله أن زوجه الراحلة مضت دون إلزامه برعاية غيره؟ أكان يحسن رعاية ابن؟ هل أحسنت أمه رعايته؟ تذكر كم كانت قاسية ؟ وكان لحضورها مهابة لا تتلاشى حتى فى غيابها، وعلى ذكر أمه تجعل ذاكرته تستعيد على الفور قريبة لها نزلت ضيفة بدارهم لبضعة أيام، وهو يرجح أن المناسبة كانت تتعلق بزواج أحد أشقاء والدته، ويذكر أن الدار كانت تعج بالنزلاء فى تلك المناسبة، مما استوجب السماح لتلك الضيفة أن تشاركه وشقيقته فراشهما إذا ما جاء الليل، فقد كان صغيرًا رغم بلوغه الحلم، أو هكذا كانت نظرة الأسرة إلى من هم فى مثل سنه، وفى القرية تعد كل قريبة للأم - حتى وإن كانت القرابة من الدرجة المائة - خالة للصغار، وبالتالى فالصغار محارم لا تطولهم ظنون أو شبهات إذا ما شاركتهم الخالة فراشهم، وهو أحيانا يتذكر اسم تلك الخالة،

وأحيانا ينسل الاسم من ذاكرته فلا يهتدى إليه، ولكنه يتذكر جيدًا أن تلك الخالة كانت راوية جيدة للحكايات والحواديت التى تثير شغف الصغار، فينصتون فى صمت إلى قصصها حتى يغلبهم النعاس، ويذكر أنه كان يتوسط الفراش بين شقيقته الصغيرة والخالة، إذ كانت الصغيرة تبول على فراشها إذا ما غطت فى النوم، مما جعل الخالة تضعه كساتر لحماية ملابسها من بلل الطفلة، وكأن ما جرى قد وقع بالأمس القريب، فقد كان للخالة جسد مكتظ، وكان رأسه الصغير يصطدم بكتلتي من لحم لدن هما نهداها الكبيران، فتشتعل داخله غريزة متأججة كان حديث عهد باكتشافها، وكان يمضى - متى أرقته -إلى الحمام يعبث بعضوه، ولكن تلك الشعلة فى تلك اللحظة كانت ممزوجة بخوف من ردة فعل المرأة، أن تنهره الخالة أو تشى به عند أمه؟ وما أدراك بعقاب أمه الذى ستعد فعلته عارًا قد يستوجب بتر عضوه الذكرى؟ فقد ضبطته مرة وهو يعبث بعضوه فأنذرته ببتره إن عاود مسه؟ ولم يكن للحياة من معنى دون العبث الدائم بعضوه والتلذذ بنشوته، فكيف النجاة من سكينها؟ ولكن الخالة لم تنهره ولم تشى بأمره إلى أمه، بل استشعر بيدها تمتد إلى ظهره وتقربه إلى جسدها المكتظ، فيتأرجح بين الطاعة التى تدفعه إليها رغبته المتأججة، والتأنى الذى يفرضه الخوف من اكتشاف فعلته، ولا مناص من طغيان الرغبة فى تلك اللحظة على كل أوهام الخوف،

خاصة أن يد الخالة امتدت فى اليوم التالى إلى عضوه فطابت له فعلتها، رغم خشونة أناملها، وإذا بها تدفع به إلى عضوها من خلال فتحه فى سروالها الطويل مما كانت ترتدى النساء فى ذلك الزمان، إذ كانت سراويل زمن الخالة تصنع من قماش الساتان الناعم وينتهى بشريط لولبى يغطى شيئًا من الساقين، وكان مع ذلك أكثر إثارة من سراويل اليوم التى لا تستر غير عورة النساء، وكأنه يستشعر اللحظة بكف الخالة على ملمس عضوه وهى تدفع به إلى مكمن عضوها، ولا تتركه حتى يستقر داخلها، ورغم ضخامة حجم جسدها، كانت تتحرك برشاقة ليبقى عضوها فى رواحه ومجيئه ملتصقا بعضوه الصلب حتى تأتى بشبقها فتدفع بجسده بعيدا عنها، فلا يجرؤ على الاقتراب ناحيتها ثانية حتى تأذن له، ومازال يتذكر كيف كان عضوها أشبه بماجور عجين ممتلئ بإفرازات لزجة، ولم يكن ذلك مقززا بمقدار ما كان يزيده رغبة والتصاقا بها، ابتسم وهو يستعيد ذكرى تلك الأيام الغابرة، وكيف ظل حتى رحيل الخالة عن البيت يدعو الله ألا تشى بأمره إلى أمه؟ حتي يبقى عضوه بجسده إلى الأبد؟ أين أنت اليوم من تلك الأيام الخوالى؟ كأن دهرا قد مر كلمح البصر؟ فما بال أيام عصر الصاروخ تمضى بسرعة سلحفاة؟



(27)

وقع حادث مؤسف على مقربة من مسجد العزبة، فعلى بعد خطوات من باب المسجد، كانت الست عنبة وأمها تقفان فى انتظار الشيخ بسيونى، كانت المرأتان قد أوفدتا أحد الصبية لاستدعاء الشيخ، وقد جرت العادة أن تأتى بعض النسوة لمقابلة الشيخ خارج المسجد لأمر من أمور الدين أو الدنيا، والحق أن الشيخ لم يكن يرد زائرا عن فتوى تطلبها أو مساعدة مالية يقدمها المسجد لمحتاجين، وكانت تلك المساعدات تأتى من تبرعات محسنين وهبات من ميسورين، ولم يكن الشيخ -وفريق يعمل معه- يقدمون مساعدتهم لطلابها دون ضوابط وأوراق تعزز حاجاتهم، أما الفتاوى الدينية فقد كان الشيخ سخى العطاء يدلى بها لكل طالب، وبلا مقابل غير رضا الله ورسوله على حد قول الشيخ، ولا أحد يعرف ما هى علوم الشيخ التى تؤهله فى التصدى لأمور فقهية قد يتطلب بعضها تخصصا أو أسانيد لا قبل لعلمه بأمرها، وعادة فقد كان يكفى العامة أن يكون شيخهم حافظا للقرآن، أو قادرا على إمامتهم فى الصلاة، ليعدوه عالما بأمور دينهم، ولم تكن الست عنبة أو أمها طالبتى فتوى أو مساعدة مالية من الشيخ، فعندما خرج عليهما ببشاشته التى يلقى بها طلابه، باغتته أم عنبة بوجه يشى بشر:

- كيف يمكن لرجل يفترض فيه الصلاح مثلك أن يتسبب فى خراب بيت ابنتى؟

تجهم الوجه البشوش وقد توجس شرا، فبادر:

- أعوذ بالله أن أكون هذا الرجل؟

استطردت عنبة كلام الأم بلهجة أكثر حدة:

- ألم تصطحب زوجى بنفسك إلى بيت أم نوال الخاطبة ليتزوج من أخرى؟

أدرك فى تلك اللحظة أنه أمام زوجة المعلم بخيت وحماته، فرأى أن الإنكار لن يحمد عقباه، فقال مبررا، وقد شعر باضطراب خفى:

- حدث ذلك بناء على طلب زوجك، وبرر طلبه بحاجته إلى البنين؟

صاحت فى وجهه:

- زوجى عقيم ولا يريد الإقرار بعقمه؟

وأضافت دون حياء:

- أما أنا فعندى ولد من زوج سابق، أى أن بطنى خصبة لمن ليست به علة .

زاد من اضطراب الشيخ، وقد تجمهر بعض المارة بسبب صوت المرأتين المرتفع، فأراد حسم الموقف:

- الأمر بيد زوجك ولا شأن لى بقراره؟

تدخل بعض المتجمهرين لصالح الشيخ، فقال أحدهم مؤكدًا قوله:

- هذا صحيح، فادخرى غضبك لزوجك فهو أحق بها؟

وقال آخر فى بلاهة:

- هكذا النساء يتركن الحمار ويضربن البردعة؟

صاحت أم عنبة لإرهاب المتجمهرين:

- أما الحمار فهو لا يذهب إلى مكان دون حمار يسوقه؟

وأوضحت عنبة قول أمها:

- هذا الشيخ هو أُس البلاء، فهو من يحرضه لغرض دنىء

وإذا بالأم تهجم على الشيخ وتجذبه من جلبابه وهى تواصل الصياح:

- كان الأولى أن تنصحه بزيارة طبيب، هكذا يفعل الشيوخ مع العصاة؟

اندفع بعض المارة لإنقاذ الشيخ من قبضة الأم، بينما تهيأت عنبة لدعمها، فخلعت فردة من حذائها وكادت تهوى بها على رأس الشيخ، ولكن يد أحدهم سارعت بدفعها إلى الخلف، وقد استشعرت بجسده يلتصق بمؤخرتها، فاستدارت ناحيته وهوت بفردة الحذاء فوق رأسه مرات، فتراجع وهو يصيح:

- أي جزاء لمخلص بينكما؟

عندما جرى نقل الواقعة إلى سكان بيت السقا، تلقاها بعضهم بقلق من جرأة المرأتين، أما خميس بكر فقد استشعر بالرضا التام.

(28)

توجس موقفًا مشابهًا قد يتعرض له من جراء علاقته بها، وقد خطر له وهو يمضى للقائها عند شادر السمك أن يقطع صلته بها، ولكنه عدل عن ذلك الخاطر، فالضرر من استمرار علاقته بها أصبح يتساوى مع الضرر الذى يمكن أن يسببه ابتعاده عنها، وما كاد يلقاها حتى بادرها:

– على المرء أن يحاذر من غضبك، فعواقبه إما فضيحة أو «علقة» من حذائك؟

ابتسمت بمكر واستطردت بدلا منه:

– أو جريمة قتل إن استدعت الحاجة؟

– ما نال الشيخ بسيونى لم يكن مبررا؟

– وألم يبلغك ما نال أم نوال الخاطبة؟

انتابته قشعريرة، فقالت :

– لم يعد هناك أمان لأحد، فلا تلومننى إن دافعت عن بيتى

– ولكن الخطر قادم من داخل البيت لا من خارجه .

- هذا الخطر انتظره منذ تزوجت من بخيت، وكل ما أفعله هى محاولات لتأخيره؟ هل تفهمنى؟

لعله لم يفهم ما تعنيه وقتها، وإن كان قد وعاه فيما بعد، رغب فى تغيير مجرى الحوار، فمد يده وأمسك بيدها، فاستجابت حتى تعانق الكفان رغم قولها:

- سبق وأخبرتك أن التسكع فى الشوارع لم يعد آمنًا

- بل لم يعد مجديا، هذا قولك .

ابتسمت فى دلال حتى عاد الصفاء إلى الوجه المستدير:

وفى اليوم التالى جاءه صوتها عبر الهاتف:

- إذا ما انتصف الليل فاصعد إلى شقتى، ستجدنى فى انتظارك؟ وحاذر أن يراك أحد؟

انقبض صدره:

- ولكن؟

حسمت الأمر:

- القرار لك، فزوجى لن يعود قبل الغد .

وأغلقت الخط.

ما هذا الاضطراب الذى يكتنفه؟ هى من دعته، لو لم تكن مطمئنة أكانت تغامر؟ ترى لو قرر زوجها العودة فى نفس اليوم لطارئ فكم يستغرق من الزمن للوصول إلى القاهرة؟ هل يعود بسيارته النصف نقل؟ أم يأتى متخفيا لضبطهما متلبسين؟ وقبل انتصاف الليل بساعة غادر البيت وقد ودعه محمد نبيل والشيخ عبدالله دون اهتمام، لو اكتشف أمره فسيكون محمد نبيل أول من يشهر به، أما عبدالله فموقفه غامض كغموض نواياه، فعلى حين يبادره الأول بالعداء جهرًا، يلقاه الأخر ببشاشة صفراء، وأزاحهما عن رأسه عندما وجد نفسه يعبر خط السكك الحديدية فى اتجاه شارع أحمد حلمى، فواصل ابتعاده آملا أن يحل بالدنيا حدث جلل يجبره على التراجع عن الصعود إلى شقتها، ولكن الوقت مضى بسرعة دون أن يمهل الكوارث الطبيعية فرصتها فى هز نواميس الكون، فتراجع مرتدًا إلى البيت وقد أرضاه الظلام الذى يخيم على القضبان، فضلا عن الصمت الموحش، والذى يبشر بظهور عفريت، ولما لا والمكان شهد مصرع العشرات،

بل والمئات أسفل عجلات القطارات، كان عم منصور الخياط واحدا منهم ؟ ألا يحوم شيطانه مكان مصرعه؟ وداهمته قشعريرة مفاجئة فأسرع من خطواته حتى هبط إلى أرض العزبة،

ولا يعرف كيف وصل إلى البيت، فصعد درجات السلالم بخفة اللصوص، ورغم وساوسه وصل إلى الردهة التى تفصل بين باب شقتها والشقة التى تواجهها، ووجد فى الظلام والصمت ألفة هدأت من اضطرابه، وقبل أن تمتد يده إلى جرس الباب انفتح ، حيث فوجئ بشبحها يستقبله وهو يجره إلى الداخل، فألقى بثقله خلفها، بينما راحت باضطراب مشابه لاضطرابه تحكم غلق الباب، كان ضوء المكان خافتًا فلم يتبين موقعه، كما فشلت فى قيادته إلى الداخل إذ باغتتها هجمته المتعجلة فوجدت جسده المضطرب يحيط بجسدها الملتف بجلباب منزلى، فحاولت ثانية الزج به بعيدًا عن الباب، ولكن قوة مغناطيسية محكمة حالت دون تراجعه، ثم أحكم هجومه بمد ساعديه حول خصريها، فاستدارت ناحيته وقد تلاحقت أنفاسها على أثر هجمته الشرسة، وسرت فى الجسد قشعريرة فطوقته بذراعيها، وتقارب طولهما منح شفتيها الكبيرتين امتلاك كامل فمه، فراحت تقضمه بهجمة مضادة حتى عجزت سيقانهما على الصمود، فاحتكم الجسدان إلى بساط أسفل أقدامهما بالقرب من الباب، بينما امتدت الأيدي المتعجلة لتنتزع ما يعوق تلهفهما من ثياب.



(29)

نادرًا ما يطرق أحدهم باب شقته، باستثناء محصل شركة الكهرباء أو مندوبة مبيعات جاءت من الصين لعرض بضائعها على السكان، كيف اهتدى الصينيون إلى تلك المنطقة العشوائية؟ لم يكن الطارق عندما فتح الباب محصل الكهرباء ولا كانت مندوبة المبيعات الصينية، وإنما كان شاب فى العشرين من عمره وبصحبته امرأة ريفية تجاوزت السبعين:

- هل أنت عم خميس بكر؟

- نعم

قالت المرأة:

- إنا والدة قنديل

استشعر قلقًا، ولكنه رحب بهما ودعاهما إلى الدخول، وما أن جلست المرأة والشاب حتى قالت:

- قال رفيقاه فى الشقة إنك صديقه الأقرب، والذى يعرف عنه كل شىء؟

تذكر أنه لم ير قنديل منذ أكثر من عشرة أيام، وظن أنه قد سافر إلى بلدته، فلم يعر الأمر اهتمامًا، وهاهو الآن يفاجأ باختفائه، أضاف الشاب وقد عرف أنه أخ غير شقيق لقنديل:

– هاتفه المحمول خارج الخدمة منذ غيابه ؟ ولم يكن يمر يوم دون أن يهاتفنى أو يهاتف أمه؟

وقالت الأم:

– شعرنا بالقلق فاضطررنا إلى الحضور إلى القاهرة بالأمس، وقابلنا من يقيمان معه فى المسكن، ولكن لا علم لهما بغيابه؟ وهما من أرشدانا إليك واثقين أن سره عندك؟

واستكمل الأخ غير الشقيق:

– لقد ذهبنا إلى مقر الصحيفة التى يعمل بها، وهم مثلنا يجهلون سبب غيابه؟

علق خميس بكر، وقد استشعر قلقًا مبهمًا:

– هل انشقت الأرض وابتلعته؟

سالت دموع الأم وهى تقول:

– إن كان قد أصابه مكروه فليخبرنا من يعرف ؟ هذا خير من حالة التخبط التى نعيشها الساعة؟

– ليس عندى ما أخفيه عنكما، وقد رجحت غيابه أن يكون قد عاد لبلدته .

قالت الأم:

– هو لا يشعر بالراحة فى بلده، ويرى أن مستقبله مرهون بوجوده فى القاهرة.

لم يجد ما يمكن قوله، فاقترح:

– لم يعد أمامكما إلا طرق أبواب الشرطة والمستشفيات؟

قال الأخ:

– هذا ما فعلناه، وقد رفضت الشرطة تحرير محضرًا بالواقعة، قالوا إنه غير قاصر؟ ومادام غير مطلوب لثأر، وليس امرأة حتى يختطفها أحد؟ وما دمنا لا نتهم شخصًا محددًا فلا مبرر للقلق؟ أما المستشفيات فلا وجود لاسمه فى سجلاتها، حتى المشرحة توجهنا إليها فلم نجد له جثة ؟

بدا الأمر محيرًا، ولم يجد خميس ما يقوله مرة أخرى، فقال مطمئنا:

– سيظهر فجأة مثلما اختفى فجأة .



(30)

غادرته والدة قنديل وشقيقه، ولكن الوساوس لم تغادره، وتذكر حديث الوثائق التى ذكرها قنديل، هل لها علاقة باختفائه؟ هل تحدث مع غيره بأمرها؟ هل يجازف ويدلى بدلوه إلى الشرطة؟ أيصدقونه؟ وماذا إذا ما ظهر قنديل فجأة وأنكر حديثه؟ حتى تنجلى الغمة ففى التأنى السلامة، كان غارقا فى همه الجديد على مقهاه، حتى أخرجته بائعة المناديل الورقية من وساوسه، إذ فوجئ بها تجلس إلى جواره بجرأة أقلقته، فقال وهو يلتفت حوله:

- حمدًا لله على نجاتك؟ أما أنا فقد جردونى من مالى وساعة يدى؟

قالت بوجه ينذر بشر:

- لست تلميذة تخدعها لعبتك؟ أنت من اختار المكان ولا استبعد أن يكون من كانوا بالداخل هم شركاء لك؟

- ما معنى ذلك؟

قالت بوقاحة:

- معناه أنك ظننت أننى فريسة سهلة يمكنك أن تقيم على جسدها مأدبة لرفاقك؟

ضايقه استنتاجها:

– أقسم لك أننى مثلك فوجئت بهما؟

– ليكن، فلن أتنازل عن باقى الأجرة التى اتفقنا عليها؟ هذا بخلاف التعويض المناسب عما أصابنى؟

أدرك أنها لن تتورع عن تهديده بفضيحة إن لم تنل من ماله، فهل من سبيل غير الإذعان لما يسكتها؟

فى تلك الأثناء رأى أمين زكى يدخل المقهى ويتجه إلى مجلسه المعتاد إلى جواره، وقد تبادل التحية مع المرأة، وقد تبادلا أيضا نظرة ذات مغزى ، فقال أمين زكى معلقا، بعد أن غادرتهما المرأة، وبما يفيد إدراكه لعلاقتها الجديدة بصاحبه:

– لا بأس بها لمن هم فى مثل سننا.

فأضطر خميس أن يروى ما جرى وإصرار المرأة على سلبه أجرتها نظير لا شىء، فعلق أمين على روايته:

– أمثالنا قد يضطر إلى تحمل خسارة بعض المال لتجنب فضيحة لا قبل له على مواجهتها .

ولأول مرة راح أمين زكى يفضفض إلى نديم مقهاه بشىء من همومه، وكأن واقعة بائعة المناديل قد قربت بينهما.

(31)

لا يفارق ليّ النارجيلة فم أمين زكى حتى وهو يتحدث:

- لو عاد الزمان إلى الوراء، لاخترت طريقا مغايرا لما أنا فيه اليوم، هل تصدقنى أن قلت لك أننى لا أحسد الأثرياء على ثرائهم، بقدر ما أحسد أمثالك من الذين أنعم الله عليهم بعدم الإنجاب؟

كان خميس بكر ينصت فى غير فهم، بينما واصل أمين زكى:

- لست أعرف إن كنت أنت المسئول بيولوجيا عن عدم الإنجاب، أو كانت زوجتك الراحلة؟ وبغض النظر إن كنت أنت قد استوعبت قول الله تعالى: ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ،أو لم تستوعبه، فمن المؤكد أنك لاحظت أن الله قد قدم المال على «البنون»، من سوء حظى أننى لم أستوعب قوله سبحانه فى حينه، فلو استوعبته لما تورطت وسمحت لزوجتى بالإنجاب، أو تركت عملية التناسل تتوالى دون تدخل من جانبى، وربما ما تزوجت أصلا، راضيا وقانعا بأمثال بائعة المناديل الورقية رغم رائحتها الكريهة، لا أظن أن حياتك التى تخلو من الأولاد تؤهلك لاستيعاب ما أقول؟

جاء النادل بناء على طلب من أمين زكى، وقام بتغيير حجر النارجيلة، وإضافة جمرات الفحم فوق المعسل، فتوقف أمين زكى عن الاسترسال حتى انتهى النادل من أداء عمله، بعدها واصل:

- فى جيلنا لم يكن للمال السطوة الكبرى، فكانت مطالبنا قابلة للتحقيق، ولم تكن قيمة الآباء فيما يستطيعون تحقيقه للأبناء من مطالب فحسب، أما أبناء هذا الجيل فقد ولدوا فى مجتمع تحول إلى سوق استهلاكي لما ينتجه الآخرون، ورغم أننا بلد يعانى من ندرة اقتصادية، فدلنى على ابن واحد لا يحمل تليفونًا محمولاً؟ أو لا يمتلك أحدث ما أنتجه الآخرون من أجهزة الكمبيوتر، أو جهاز اللاب توب؟ إذا لم يوفر الآباء للأبناء مثل هذه المطالب فلن يتركوهم ينعمون بحياتهم، أبناء اليوم لا يرون من وظيفة للآباء غير تدبير المال اللازم لشراء ما يريدون، فلا وظائف وفرتها الدولة للخريجين، وما من هوايات، وما من حلم بمستقبل يمكن تحقيقه، إذن لا بديل غير الثرثرة فى المحمول أو على ما يسمى فيس بوك،؟ ولا أحد يقدر أن كروت الشحن أو اشتراك الإنترنت يكلف مالا؟ فالآباء مطالبون بتدبير المال اللازم لهذا اللغو الطارئ على مجتمعاتنا.

لم يكن خميس بكر فضوليا، ولكنه كان ينصت باهتمام إلى فضفضة نديمه:

- كنت محاسبا فى مصلحة حكومية، وكنت مثلك، كثير الصدام مع رؤسائى فى العمل، فلم أرتقِ إلى وظيفة قيادية حتى بلغت سن المعاش، لم أنعم كثيرا بشبابى، إذ حاصرتنى أسرتى ومنذ وقت مبكر، حتى تزوجت وأنا دون العشرين، كانت العروس - رحمها الله- قريبة لأمى، ولم يكن لها من طموح غير إنجاب الأطفال، كان الاعتقاد السائد فى ذلك الزمان أن ما يحصن الزوجة من الطلاق هو عدد ما تنجبه من أولاد، خاصة الذكور، فتركت قبل رحيلها أربعة من الذكور وأنثى واحدة، ولقد بلغت الأنثى عامها الثلاثين قبل أن أتمكن من الخلاص منها

- الخلاص منها؟

- زوجتها لأول طارق، زواج البنات من أصعب المصاعب فى هذا الزمان، فالبطالة، وضعف المرتبات، والغلو فى أزمة الإسكان، وعوامل أخرى لا حصر لها، جعلت الشباب يعزفون عن الزواج، أما الصبيان فحدث ولا حرج، من بلغ منهم سن الزواج يقبع فى انتظار أن توفر له مسكنا، ومن لا يكفيه راتبه من وظيفة ألحقته بها فضل عليها العسكرة فى البيت،

فإن ناقشته حسم المناقشة بالسؤال التقليدى «ما دمت غير قادر على الإنفاق علينا فلماذا أنجبتنا؟» قل لى فى أى عصر كان إنجاب الأبناء نعمة من الله؟ ولماذا أصبح وجودهم عقابا يلحق بالفقراء حتى موتهم؟ لو كنت أملك القدرة على ردهم من حيث جاءوا لفعلت؟

هم لا يقدرون أن أباهم عاش بعد أمهم من أجلهم، ولم يفكر كغيره فى زوجة أخرى، وكم يغيظنى ردهم السخيف على تضحياتي «وهل منعناك من الزواج؟ »

جاء النادل مرة أخرى وأعاد الكرة، وبعد ذهابه، استطرد أمين زكى بحسرة:

- أحد أقاربى عندما مر بظرف مشابه، كان أكثر جرأة وأنانية ، إذ اختار من بين المعزيات زوجته الثانية، وكان جثمان زوجه مازال فى الغسل، إذ فكر الرجل فيمن سيضاجعها غدا، ضاربا عرض الحائط بتقولات الآخرين، هذا هو الصواب الذى يخشاه الجبناء من أمثالى،

دعنى استعين مثلك بأقوال الحكماء، أنت تعرف بالتأكيد هذا الكاتب الأيرلندى برنارد شو، فقد نسبت إليه مقولة لم أخذ بها وهذامن سوء حظى، إذ قال فى مناسبة لا أذكرها: أنهم يقولون؟ ماذا يقولون؟ دعهم يقولون؟

لعل أمين زكى قد أفاض أكثر مما يحتمله محدثه، ولم يتوقف عن الاسترسال إلا عندما لاحظ شرود ذهن نديمه، فاعتذر عن إفاضته، ولكن خميس بكر تجاهل اعتذاره، كما تجاهل هموم صاحبه، وراح يسأل:

- إلى أين تمضى ببائعة المناديل الورقية؟

- إلى بيت قوادة فى بولاق، رغم أن المكان يشكل خطرا، ولكن هل من بديل عن المخاطرة؟



(32)

تضاعف عدد سكان بيت السقا بوصول ملاك الوحدات السكنية الجديدة التى جرت إضافتها إلى البيت، كما تضاعف عدد السيارات التى أصبحت تشغل جزءا كبيرا من الشارع حتى ضاق بأهله وعابريه، كذلك لم يعد مصدر الضجيج فى البيت حكرا على أسرة عم فوزى ، كما استجدت أسباب للاحتكاك بين السكان مصدرها بالوعة صرف صحى بالطابق الأرضى، وهى البالوعة الرئيسة للبيت، إذ أصبح طفحها وما تحمله من قاذورات مشهدا يكاد يتكرر يوما بعد يوم، وكان إصلاحها الدائم يتطلب تعاون كل شاغلى الوحدات وهو ما لم يكن يحدث، وبالتالى فإن سكان الطابق الأرضى كانوا فى شجار دائم مع باقى السكان إذ كانوا أكثر المتضررين، وكان عليهم عبء استدعاء السباك فى كل مرة ، وجمع أجرته من السكان، ولم يكن هذا العبء يمر دائمًا بسلام، ثم جاء ارتفاع قيمة استهلاك فواتير مياه الشرب ليزيد من أسباب الاحتكاك، خاصة أن البيت لم يكن له غير عداد واحد لاحتساب قيمة الاستهلاك، وكان المالك قد نفض يديه عن تلك الأمور.

ورغم أن سعيد الدسوقى لم يكن من المشغولين بتلك الأمور، فقد كان أكثرهم قلقا وتعاسة من هذا الزحام الذى حل بالبيت، خاصة وأن سلالم البيت لم تعد آمنة حتى بعد انتصاف الليل، وأصبح عليه أن يمتهن سلوك اللصوص فى تسلله إلى شقة امرأته أو حين مغادرتها، وقد وقع ما كان يخشاه بالفعل، فما كان يغادر بابها ذات ليلة حتى اصطدم بجسد شبح وهو يهبط درجات السلالم على عجل، وتلاحقت أنفاسه عندما تبين له أن هذا الشبح ما هو إلا خميس بكر، ترى أكان يراقبه؟ إذن لماذا يقف فوق درجات سلالم لا تفضى إلى مسكنه؟ وإذا هو يباغته:

- سعيد؟ من أين أنت قادم؟

أجاب باضطراب:

- هذا الظلام جعلنى أضل طابقنا

تظاهر الرجل بتصديقه، وقال مؤكدا:

- نعم !

رغم قوله لم يطمئن الشاب إلى خبث الثعلب العجوز، فرافقه إلى شقته، وما كاد الشاب يأخذ مجلسه على الكنبة حتى راح يجفف قطرات العرق الطافية على جبهته وهو يلعن الرجل الذى كان يتفحص وجهه وهيئته من طرف خفى، ترى كيف قرأ الموقف؟ تجنب نظراته بسؤاله:

- ألا يوجد جديد بشأن قنديل؟

أجابه بغير اهتمام:

- لا شىء

ثم أضاف:

- هل تريد شايا؟

رغم تأخر الوقت واقتراب الفجر، وحاجته الشديدة إلى النوم، قال على الفور:

- نعم

تركه الرجل ومضى إلى مطبخه، فاستعاد الشاب هدوءه، وراح يسأل نفسه كيف يؤمن غدر الرجل؟ كان يعلم مدى اشتهاء العجوز المتصابى لامرأته، ولم يكن الرجل يخفى رغبته الملحة متى جاء ذكرها، فعاوده الاضطراب، ولكنه لم ينبس(*)، بل حمد الله أنه لم يجر ذكرها على لسانه فى تلك الليلة الظلماء، ترى ما الذى يضمره من مكيدة فى نفسه؟ ورغم عدم اطمئنانه كان لا يحمل للرجل كرها، بل كان يرى أن النذالة ليست من شيمته، وعندما عاد حاملا كوبا الشاى بادره سعيد مرة أخرى:

- ما هذا الغموض الذى يحيط بغياب قنديل المفاجىء؟



(*) ينبس : يتكلم .

(33)

عندما عاد إلى غرفته، كان رفيقاه يغطان فى نوم عميق، فحمد الله على ذلك، ودون أن يخلع غير حذائه آوى إلى فراشه بعد أن أطفأ مصباح الغرفة الذى كان قد أضاءه، فما أشد حاجته إلى الصمت والظلام ليستعيد سكينته فى أحداث تلك الليلة التى جاءت خاتمتها لتعتم على تلك النشوى الممتعة التى منحته إياها المرأة، وفكر فى الاتصال بها وإبلاغها بما حدث، وتهيأ لمغادرة الفراش ولكن صوت أذان الفجر انطلق، فتريث حتى ينهض رفيقاه ويغادران الغرفة كعادتهما لصلاة الفجر، فتظاهر بالنوم العميق حتى توضآ وغادرا البيت، فسارع إلى الاتصال بها،حتى جاءه صوتها الغارق فى النعاس:

– أما زلت يقظا؟

– وكيف أنام وقد صادفت عم خميس وأنا أهبط السلالم؟

سألت باهتمام:

– وماذا قلت له؟

– بررت الأمر بشدة ظلمة السلم

– إذن لا مشكلة.

- ربما راودته شكوك؟

قالت بلا مبالاة:

- تجاهله حتى لا تثير ريبته.

- ليس بالرجل السهل كما تعرفين

قاطعته حاسمة:

- كن قويا وتخلص من هواجسك

ثم تساءلت :

- أين أنت الآن؟

- فى الغرفة وحدى، فقد غادر رفيقاى لصلاة الفجر

فقال الصوت الناعس بإغراء:

- وانأ أيضا وحدى، فلماذا لا تصعد لنتخلص من وحدتنا؟

- ثانية؟

واصل الصوت الناعس هجومه:

- وثالثة وإلى الأبد، هلم فكم أحتاج إليك؟

أيقظت دعوتها حواسه، فاستشعر نشاطا طارئا لم يستطع مقاومته، فغادر فراشه وقد تجاهل هواجسه، حتى وجه زوجها تلاشت ملامحه الصارمة فى ظلمات الردهة التى تفصل بين باب شقته وشقة خميس بكر،

ولكن ثمة انقباضًا بالصدر داهمه فجأة وهو يتلمس درجات السلالم بحنكة لص محترف، ترى هل يتلصص عليه راسبوتين؟ ومرة أخرى لم يطرق الباب، إذ كانت امرأته فى شرف استقباله.



(34)

ثمة مواقف طيبة لا تنسى لعبد الله، وقد تجلى أحدها عندما توفى عم فوزى، فقد وجد أسرته لحظتها فى حالة عجز تام عن القيام بالمصاريف اللازمة لتكفين الجثمان ودفنه، فحمل الشيخ الصغير عن الأسرة العبء، وفوق ذلك وضع فى يد الأرملة مبلغا من المال، وربما كان صحيحًا أن المال لم يكن مال الشيخ الشاب، ولكن الصحيح كذلك أن هذا المال ما كان يصل إلى الأسرة دونه، ففاعل الخير أحيانا يتوارى خلف وسطاء صالحين، وكذلك كان موقف الشيخ عبدالله ظاهرا فى رعايته لأرملة منصور الخياط وبكرها المريض، وحتى على مستوى العزبة فلا إنكار ليده البيضاء فى تأسيس عيادة خيرية ملحقة بالمسجد، ولأن لكل نبى فى بلادنا نصيبًا من ضربة حجر، فلم يسلم الشيخ الشاب من غمازات غريمه الشيخ بسيونى، الذى استشعر مبكرا أن السجادة تسحب من تحت قدميه وتبسط أمام غيره، أي ريح هذه التى حملت إلى مملكته مسخا من عصر الإنترنت؟

كذلك جاءت وفاة عم فوزى لتكشف عن الجانب الطيب من شخصية الست عنبة، إذ بادرت بمشاطرة الأرملة أحزانها، وتقديم عون مالي للأسرة، وقد استلفت ظهورها- فى مجلس النساء- تهامس بعضهن بما لا يليق،

إذ تجلت المرأة فى عباءة سوداء ملتصقة بجسدها مما كشف عن مفاتنها وسحرها، ولم يكن همسهن مبعثه الحرص على محاسن الأخلاق أو جلال المناسبة، وإنما كان مبعثه الخفى هى تلك الغيرة الممزوجة بالحسد مما حباها الله من جمال، وجرأة على ارتداء ما يبرز مفاتنها من ثياب، فهذه الحرية التى تتمتع بها اللعوب فى اختيار ما ترتدى من ثياب، هى من المحرمات عليهن، فلن يقبل بها أزواجهن، ولا ذات المجتمع الذى يتقبلها برضا من غريمتهن، وربما كانت الست فوقية أكثرهن غيرة وحسدًا،

ولكن ما تقاسيه من معاناة يومية تجبرها على أن تجهر بغير ما تبطن، فما تدسه الست عنبة فى يدها بين الحين والحين كافٍ لتلقاها دائما بابتسامة يملؤها الإشراق، اللعنة على الفقر وذله.



(35)

فوجئ خميس بكر باستدعاء من قسم شرطة الشرابية لمقابلة ضابط مباحث يدعى سمير معاذ، ورغم أن الشرطى الذى سلمه الاستدعاء لم يقدم له تفسيرًا عن سبب المقابلة، فقد استنتج أن الأمر يتعلق باختفاء قنديل، إذ كانت فترة غيابه قد طالت حتى بلغت الثلاثين يوما، فضلا عما يحيط هذا الغياب من غموض يثير كثيرًا من التساؤلات؟ وكان شقيق قنديل يعاوده كل بضعة أيام أملا في ظهور أخيه ،أو ما يستدل به إليه، ولأن مصائب قوم عند قوم فوائد -كما يقولون- فقد قام صاحب البيت بتحرير محضر فى قسم الشرطة مطالبا بفسخ العقد المبرم مع الساكن الذى هجر المسكن دون دفع الأجرة المستحقة وإخلاء الشقة من الغرباء الذين استجلبهم المستأجر الهارب من الباطن، وقد حضرت الشرطة بالفعل، ولكنها أبقت الوضع القائم إلى حين ظهور الغائب أو قيام المتضرر باللجوء إلى القضاء، وقد تم فتح غرفة الشاب بمعرفة الشرطة، وتم تحريز بعض الأوراق وعهد بها إلى ضابط المباحث حتى إشعار آخر.

عندما وصل خميس بكر إلى القسم سأل أحد الجنود عن مكتب الضابط سمير معاذ، فأرشده إلى الدور الثانى، فوجد ردهة طويلة تتفرع عنها عدة غرف، وعلى كل باب غرفة يجلس مخبر، فاقترب من أحدهم:

- أين أجد مكتب سمير بك معاذ؟

- من يريده؟

- خميس بكر

تفحصه المخبر باهتمام:

- أنت؟

- نعم

غاب المخبر لحظة فى الداخل ثم خرج يدعوه إلى الدخول فدخل، فوجد أمامه شابا نحيلا يرتدى جاكت بنى اللون مصنوعا من الجلد، وقد بدا الشاب قصير القامة وكان يجلس خلف مكتب مصنوع من الصاج، هل هذا هو الضابط؟ ألم تعد هناك مواصفات لاختيار رجال الشرطة؟ بادره الضابط الشاب على الفور وبملامح جامدة:

- نعم؟

- أنا خميس بكر

أجابه بما يشبه السخرية وبذات الوجه:

- تشرفنا، وماذا تريد؟

- جاءنى استدعاء لمقابلة الضابط سمير بك معاذ،

تفحصه الضابط وهو يعبث بأوراق فوق مكتبه، ولم يدعه إلى الجلوس كما كان ينتظر، بل بادره وكأنه فى عجلة من أمره:

- إذن أنت الرجل الذى يسكن ببيت السقا؟

- نعم.

- أين اختفى صديقك قنديل؟ الجميع اتفقوا على أنك تعرف كل خباياه بمن فيهم أمه وأخوه؟

- قنديل صديق بالإضافة إلى أنه جار، ولكن صداقتنا لا ترتقى إلى الخصوصية التى تجعلنى أعرف خباياه.

- إذن كيف تفسر غيابه؟

- لا تفسير عندى، فأنا لا ألقاه خارج البيت، وعلاقتنا لا تتجاوز الثرثرة التقليدية أثناء تناولنا الشاى فى شقتى أو فى الغرفة التى يقيم فيها؟

- ألا يوجد بينكما علاقات تجارية أو ما شابه؟

ضايقته سخافة ما يطرح عليه من أسئلة، ولكنه كان يجيب:

- لم أعرف التجارة فى حياتى قط، وعملت فى خدمة الحكومة سبعة وثلاثين عاما، ومعاشى يكفينى، فلا زوجة ولا أولاد؟

تنهد الضابط فى ضيق:

- من كان أقرب أصدقائه سواك؟

- لا أعرف له صديقًا.

- وماذا عن زملاء الصحيفة التى كان يتدرب بها؟

- هو لا يتحدث عن نفسه، ولا فضول عندى للبحث فى شئون الناس

بدأ الضيق على وجه الضابط من تلك الردود المنتقاه ،فاستدعى الضابط المخبر، وأمره باصطحاب الرجل إلى غرفة الحجز، ففغر خميس فاه غير مصدق، وراح ينظر إلى الضابط وهو يقول فى احتجاج:

- لماذا؟

تجاهله الضابط، بينما كان المخبر يتجه ناحية خميس لاصطحابه خارج الغرفة، فتشبث بوقفته وقد علا صوته:

- بأى حق يجرى احتجازى، لست متهمًا بشىء، وأعرف القانون جيدا.

- ولكنك تجهل ما هو قانون الطوارىء.

ثم نظر الضابط بغضب ناحية المخبر، فتحرك بقوة وأمسك بخميس، وراح يدفعه بعنف إلى خارج الغرفة، فعجز عن مقاومته، فواصل صياحه:

- هذا ضد القانون، وسأبرق للصحف وجمعيات حقوق الإنسان بهذا الانتهاك.

ابتسم الضابط وقال ساخرا:

- ولا تنسى مجلس الأمن ، ومحكمة العدل الدولية.

(36)

لم يسبق لخميس بكر أن احتك بالشرطة وجنودها قبل ذلك اليوم، لذا كان أمر احتجازه فى أول زيارة لإحدى دورهم مفاجأة أكدت له الكثير من مخاوفه تجاههم، خاصة أن احتجازه دون ذنب اقترفه يعد مساسًا بكرامته التى كان امتهانها يؤلمه أشد الألم، كان المخبر قد سلمه إلى جندى يقف حارسًا على باب غرفة الحجز ببدروم المبنى، كان للغرفة باب حديدى ضخم فى أعلاه نافذة صغيرة محاطة بأسياخ لا تسمح بخروج هرة من بين ثناياها، وقام الحارس بفتح باب الغرفة بواسطة مفتاح ضخم يحتفظ به معلقا بملابسه، ودفع بخميس الذى كان مازال مأخوذا مما يجرى إلى الداخل، فوجد نفسه وسط زحام من بشر فى غرفة طويلة مستطيلة الشكل، كما اكتشف وجود عدد من الدكك ملتصقة بالجدران، وكانت جميعها مشغولة بالجالسين والممددين فى استرخاء، ووجد البعض يفترشون مفارش من الصوف وقد بسطوها علي الأرض، لم يفسح له الممددون ليشاركهم دكتهم، ولم يدعه المفترشون الأرض حتى يأخذ مجلسه إلى جوارهم، فرضى بالاستناد إلى الحائط القريب من باب الدخول، ولكنه لم يحتمل وقفته لأكثر من ساعة، فشب على قدميه لتصل عيناه إلى النافذة التى يجلس خلفها الجندى، وتحدث إليه بأدب:

- من فضلك؟ هل يمكننى أن أعرف إلى متى سيدوم احتجازي؟

قال الجندى متعجبا :

- وهل مضى على وجودك بالداخل أيام حتى تسأل؟

انقبض قلبه فيما يشبه الإحباط:

- ولكن احتجازي دون توجيه اتهام أو تحقيق مخالف للقانون.

تجاهله الجندى، فارتد إلى مكانه مدركا عبث الجدل مع من لا حيلة عنده غير الامتثال للأوامر، وراح يتجول وسط الجالسين والممددين بحثا عن موضع يصلح للاسترخاء، وتوقفت عيناه عند دكة يتمدد فوق سطحها شخص واحد، ولكنه لم يجرؤ على استئذانه أن يشاركه دكته، إذ بدت له ملامح الرجل غير مشجعة، وإذا بدعوة من رجل فى الأربعين يفسح له مسافة من بساط تمكنه من إسناد ظهره إلى حائط، فسارع بالجلوس وهو يقول:

- أكان هذا ما ينقصنى من مغامرات؟

كان مضيفه هادئ القسمات، وكان يرغب فى الثرثرة بغرض قتل الوقت، فلم يجد غضاضة فى رواية قصته، فعلق مضيفه:

- إن لم يكن بينك وبين هذا الجار معاملات مالية، أو منافسة على حب امرأة، فلا مندوحة عندهم من احتجازك لسد خانة؟

- هل الزج بالأبرياء يعد سدًا لخانة؟

- للشرطة ألاعيبها كباقي الهيئات؟ الجميع يطبقون نظرية «كبر دماغك» وهو الوباء الذى تفشى فى الجميع؟ فإن لم يكن الغائب ذا حيثية فلن يهتم لغيابه أحد.

- ألا يفترض أن تكون المواطنة فى حد ذاتها حيثية؟

- هذا ما كنت أعتقده مثلك، ولكن الممارسة برهنت أن المسافة بين المفروض والواقع كالمسافة بين الأرض والسماء

ودفعه الفضول إلى سؤال مضيفه عن تهمته؟ فقال ببساطة:

- أنا متهم بكل ما يتوارد إلى ذهنك حتى أقبل بسحب بلاغ تقدمت به إلى النائب العام ضد رجل من ذوي الحيثية؟

كاد يعد مضيفه بطلا، ولكن البطل أضاف فى حسرة:

- أنا مهيأ اليوم للتراجع، ولكن كيف آمن غدرهم إن تراجعت؟

لم يسمح موضعه بالاسترخاء رغم حاجته الشديدة إليه، وزاد من ضيقه تشممه لرائحة ما كان له أن يشتممها، فتساءل أي زمان هذا الذى يمنع فيه الإنسان عن حقه فى الشكوى؟ أو الزج بمن لا ناقة له ولا جمل ليسد خانة عن غائب؟



(37)

كانت تراه كملاك جاء من السماء ليحمل معها أعباء كتبها الله عليها، فلم تعد عافيتها تعينها على حمل بكرها إلى المستشفى والتذلل للأطباء، خاصة وقد أصيب فى الفترة الأخيرة بالتهاب مزمن في كبده ولم يجر تشخيصه إلا مؤخرا، وكان ملاكها هذا يلازمها فى المستشفى العام، ويتحدث إلى الأطباء، فتجد منهم اهتماما مفاجئًا بمريضها، كما كانت هدايا ملاكها من السلع الغذائية تسد حاجة بيتها فى المواسم والأعياد، هذا فضلا على توفير ما يحتاجه مريضها من أدوية غالية الثمن، لكن سرعان ما سقط قناع الملاك، ليكشف عن وجه رجل ما أشبهه بمن عاونها فى الحصول على معاش الشئون، وربما كان الفارق فى وضوح غاية الأول، بينما كانت غاية الآخر يحجبها ستار، فكانت يده تمتد بما يشبه العفوية إلى كتفها مرة، وإلى ظهرها مرات، وربما لم تراودها ظنون إلا بعد تكرار ما بدا عفويا، أو أراد له صاحبه أن يبدو كذلك، وبالتأكيد فالمرأة تمتلك حاسة الاستشعار برغبة الرجل وإن غلفها بمائة غلاف، وكان بقاؤهما الطويل فى المستشفى معا يتيح لهما الحرية فى الانفراد يبعضهما البعض، ويمنح الشيخ الصغير الجرأة فيما يرى من أحاديث، ما هى إلا التمهيد للطريق إلى غايته:

– قلبى معك، فتحملك أعباء ابنك ومطالب الحياة، وحرمانك من ملذات الحياة، قلما يتحملها بشر.

كان لسانها لا يكف عن التشدق بجميل عونه، وصمتها المتعمد لعفوية يده بدا وكأنه الرضا بأفعاله، فصده عنها خسارة لا تعوض، ولعل هذا الخنوع كان مشجعا ليسترسل:

- لماذا لا تفكرين فى الزواج؟ فوجود رجل إلى جوارك فى هذه السن الصغيرة نسبيا ضرورة ملحة؟

كان السؤال غير متوقع، فقالت بحياء:

- من سيرضى بأرملة تلك هى أعباؤها؟

- إن راقت لك الفكرة بحثت من بين معارفى عن الرجل المناسب.

وأضاف بجرأة اعتادتها منه:

- لا يحق لك الجور على الأنوثة داخلك ألا تؤرقك وحدتك؟

لم تحر جوابا، واحمرت وجنتاها خجلا، ولكنه أعاد طرح السؤال بإلحاح، فقالت مستفهمة:

- وماذا أملك حيالها؟

- حرمان المرأة من حق من حقوق أحلها الله لها جحود بنعمته، فالأنوثة نعمة لا يحق للمرء قهرها.

سألتك وماذا تملك أرملة حيالها يا شيخى الصغير، ولكنك لا تجيب على غير ما تريد؟ محال أن تقبلنى زوجة لك، ففارق العمر، ومأساتي الظاهرة لكل العيون، عوائق لا تنكر، وإن كانت الغاية أنوثتى فلماذا كل هذا اللف والدوران، أتظننى قد أحجبها عنك؟

فى اليوم التالى جاء لزيارتها،وزياراته مألوفة تبررها ظواهر الأمور، أبرزها هذا الجسد العليل المستسلم للفراش، وقد حمل معه مما يحمل من هدايا، كانت صغيرتاها تغطان فى نومهما المبكر، والمريض -الحاضر الغائب- فوق سريره، وعندما اتخذ مجلسه المعتاد على حافة فراش ابنها وراح يتحدث إليه حديثه المعسول عن الصبر على البلاء، قامت إلى مطبخها لتعد له الشاى، ولكنه على غير العادة مضى خلفها، فلم تبدى اعتراضا، وراحت تشعل موقدها وهو يهمس ناحيتها:

- لم أنس ما تعهدت به، ولكن الأمر ليس بالسهولة التى ظننتها..

قالت بالحياء المعهود، ووجهها شطر موقدها:

- لست فى عجلة من الأمر؟

فواصل اقترابه منها، وقد مد كفه حتى مس كتفها، فسرت بجسدها قشعريرة، وواصل همسه:

- قد يستغرق الأمر بعض الوقت، ولكن عليك الاهتمام بنفسك، إذ يجب أن يراك العريس فى صورة مناسبة.

تساءلت بصوت غير مسموع:

- كيف؟

- لا أقصد استخدام المساحيق أو ما شابه، فهذه أشياء لا تنقصك، فالجمال كما خلقه الله أفضل كثيرا، ولكن المقصود هذا الحزن الساكن فى عينيك، الرضا بقضاء الله سيمحو هذا الحزن إلى الأبد.

وعندما لم تحر جوابا أضاف بجرأة:

- لا يجب على المرأة أن تنسى للحظة أنها امرأة.

وساد صمت فرضته وقفتهما المثيرة، انشغلت لحظة بوضع إبريق الشاى فوق شعلة الموقد، كانت كفه خلالها مازالت فوق كتفها لم تتجاوزه، فمدت يدها إلى رف المطبخ بغرض إحضار كوب فارغ، وقد مال جسدها قليلا إلى الخلف، فمست مؤخرتها شيئًا من جسده، فابتعدت على الفور، كما ابتعد هو كذلك، لكن فى اضطراب استشعرته من ناحيته، فكررت فعلتها بمعاودة مد يدها لذات الرف، فحملت منه وعاء الشاى، وكيس من السكر، وفى المرتين مالت لملامسته عامدة، وكأن الحركة غير مقصودة، أليس هذا ما يفعل؟ شجعته فعلتاها الأخيرتان، فلم يتراجع

إذ حافظ على ثبات وقفته ليتلامس الجسدان، وبدا اضطرابه أكثر من اضطرابها، فبادر بالاقتراب منها حتى مسها، فلم تبتعد، فسرت القشعريرة فى الجسدين، وإن ظل الشيخ مترددا، فلم تحتمل هى على الانتظار، فتراجعت بجسدها الممتلئ إلى الخلف، فتلقاها باطمئنان كثور، وقد مد ساعديه ليديرها ناحيته، فأطاعت برغبة متعطشة، فهالها ما صنع بها، فللشيوخ فتوة ما عهدتها من بعلها الراحل،

ولا ذاقتها من رجل عاونها يوما ما فى الحصول على معاش استثنائى كانت فى أمس الحاجة إلى جنيهاته القليلة، مثل حاجتها إلى تلك اللحظات وإن كانت آثمة.

(38)

حتى وإن داهمه الزهايمر فإن تجربة الأيام الثلاثة فى بدروم القسم لن تمحى من ذاكرته، فالويل لمن احتجزوه يوم أن يظهر قنديل فجأة مثلما اختفى فجأة؟ فسوف يجرهم جميعًا إلى المحكمة واثقًا من إدانتهم؟ حتى وأن قتل الغائب فسوف تطفو جثته- ذات يوم- لترشد عن قاتله؟ كان الغضب يملأه وهو يغادر مكتب الضابط الذى لم يتحرج من إخباره بقراره بالإفراج عنه رحمة بسنه الكبيرة؟ كما لم ينس أن يذكره بضرورة الحضور إلى مكتبه دون استدعاء إن جد بقصة الغائب جديد، وتساءل إلى أين يمضى فى أول ساعة للحرية التى نالها لكبر سنه وليست لبراءته، كم تمنى أن يزوره أحدهم، وكأنه اكتشف فجأة أنه وحيد بلا ولد أو أهل، لن يعى أمين زكى قيمة الابن إن لم يمر بتجربة مماثلة، واستشعر بحاجته إلى طعام صحى بعد عفن اضطر إليه فى محبسه، فلعل أحدهم لم يخطر متعهد توريد الطعام للمحتجزين بأنهم من البشر، وكانت حاجته إلى حمام ساخن تفوق حاجته إلى الطعام، فمضى إلى البيت، وكانت شحنات جديدة من الطوب والأسمنت وأسياخ الحديد قد اعترضت مدخله، فتجاهل أمرها، ولأول مرة راح يلتمس مبررا للمالك، فأصل البلاء هو « كبر دماغك»

التى قالها رفيق الحجز، فليشيد بخيت بيومى برجا؟ وتذكر حديثا لزميل عمل إبان كان موظفا، وقتها كان يراوده حلم امتلاك مليون جنيه، تماما كحلم الغائب فى مليون جورج قرداحى، وإذا برفيقه يحاوره:

- وكيف تؤمن هذا المليون؟

فلم يع وقتها مقصده، فتساءل:

- ما حاجتى إلى تأمينه؟ يكفينى ريعه أن أودعته بنكا؟

- إن ملكت مليونا فلن تنعم بريعه أن لم تأمنه بعشرة؟ وأن ملكت عشرة فتأمينها يكلفك مائة؟ إما المائة فكلفتها يتطلب قردا؟

- وما القرد؟

- إنه المليار؟

ففغر فاه وهو يتساءل:

- وهل فى زماننا من يمتلك قردا؟

- بل جبلاية من فضلك؟

لعل بخيت استوعب مبكرا ما لم يستوعبه هو إلا مؤخرا، وبعد فوات الأوان؟ وما يحزنه استيعاب أمثال هذا الدهماء لعصرهم دون حاجه إلى قراءة سطر مما قرأ، أو تبديد أموالهم بشراء الكتب؟ فهل صدقت مقولة أرسطو أن البشر قد خلقوا ليتدبر كلٌ منهم رزقه دون تدخل من خالقهم؟ فهذا زمان الإفك، حيث يرتع المغامرون، والمقامرون، والحواة، أما أتباع شكسبير وماركس وديستويفسكى وطاغور ومن على شاكلتهم، فهم خوارج هذا الزمان، وملاذهم الأخير مقهى يتلصصون من نافذتها على العالم الذى لفظهم فى غير ما أسف!

فعندما يصبح المال هو رب الناس ، فقل على العالم ماقال مالك فى الخمر .



(39)

ما كاد سعيد يدلف إلى مدخل البيت حتى فوجىء بعنبة وأرملة منصور الخياط تقفان أمام باب شقة الثانية، وقد توسطهما الشيخ عبدالله فى حديث مشترك، فألقى بالتحية وهو يمر بهم صاعدا إلى أعلى، ترى فيما يتحدثون؟ وما شأن عبدالله بحديثهن؟ فتملكته غيرة طارئة، خاصة وهو لا يستشعر بطمأنينة للهالة التى أحاطت بالشيخ الشاب منذ وفد إلى البيت، فعلى حين كان تدين محمد نبيل يتسم بالبراءة المشوبة بالسذاجة، بدا تدين عبدالله غامضا يثير الريبة، تماما كمن يحتمى خلف قناع، وحتى إذا ما قدر له تبرئة الشاب الملتحف بزى الشيوخ فكيف يثق فى إخلاص المرأة اللعوب؟ ألا تكفى كلمة من قاموسها المثير للزج بنبى فى ماخورها الساحر؟

تباطأ فى صعوده السلالم لعل أذنيه تلتقط كلمات من حديثهما؟ ولكنه وصل إلى منتهاه خاويا، وفى الغرفة وجد محمد نبيل متربعا فوق فراشه وهو ممسك بمصحف صغير يتلو من آياته بصوت مسموع، فحياه، فرد تحيته بهزة من رأسه حتى لا ينقطع عن تلاوته، وتساءل إن كان الواقفون بمدخل البيت قد ردوا تحيته أو تجاهلوه؟

لم يحتمل البقاء فى الغرفة طويلا، إذ بدا صوت رفيقه كأقبح الأصوات، شعور كلانا بالكراهية ناحية الآخر متبادل، وإن تظاهرنا بغير ذلك، مضى إلى الحمام بصحبة هاتفه، وراح يتصل بامرأته مرات، ولكنها تجاهلته، فعاد للغرفة واستبدل ملابسه بغيرها، ثم استأذن من رفيقه دون استئذان، ليغادر بحجة شرائه لطعام، لم يجد أحدا بمدخل البيت، فإلى أين ذهبوا؟ فواصل طريقه لا يدرى هو إلى أين؟ وعندما وصل إلى سكة القطارات توقف لثوان، ثم عرج إلى زاوية قريبة من العربة المجهولة وراح يعيد الاتصال بالمرأة، فلما جاءه صوتها استعاد روحه المفقودة، فبادرها على الفور:

- ماذا كان هناك؟

كأن الأثير قد منحها إمكانية قراءة ما يدور برأسه، فتساءلت بصرامة:

- ولماذا تسأل؟

- ألا يحق لى السؤال؟

- حتى زوجى لا امنحه هذا الحق؟

تراجع ليتجنب غضبها وهو يكشف عن غيرته:

- استلفت نظرى وجود هذا العبدالله بينكما؟

جاءت ضحكتها لتزيد من نار الغيرة:

- إذن هى الغيرة؟

- بل تحذيرك من شيطان يرتدى ثياب الواعظين؟

قالت ما أثار حنقه:

- حرام عليك، فمن تراه شيطانا هو من يحثنى على زيارة الأرملة ومريضها.

- وما المناسبة؟

زاد ضيقه وهى تقول كأنها البغاء:

- هناك أمور لا يصح أن تطلع فيها اليد اليسرى على ما تفعله اليد اليمنى، خاصة إذا ما كانت الغاية طلب الرضا من الله.

استشعر شيئًا ما هز الأرض التى تحمل ساقيه، وأيقن أن راسبوتين الذى يتحدث عنه خميس بكر قد بدأت بركته تحيط بالفريسة الجانحة؟ فما تقوله هو من مأثورات هذا العبد الله، ولعل هذا هو مدخله لصيد الغزالة الشاردة، أف، ألا يدلنى خميس بكر عن امرأة واحدة أخلصت لحبيبها منذ جاءت إلى الدنيا أمنا حواء!



(40)

فارق النوم عينيه منذ أصبح رقم هاتفها المحمول خارج الخدمة، ولم يعد يرتاب أنها قررت عن عمد قطع وسيلة الاتصال بينهما، ورجح أنها تعمل على طرده من عالمها إلى ظهور هذا العبدالله، وتساءل أى سحر مس به راسبوتين امرأته؟ لو امتلك دليلا على ظنونه فلن يتردد عن مواجهته؟ ولم تفارق -منذ الساعة -عيناه تحركات عبدالله، وحانت الفرصة باضطرار محمد نبيل للسفر إلى بلدته لمرض مفاجىء ألم بأمه، ولم يعد بالغرفة غيرهما، كان يحاول استعادة ما أهمل من دروسه دون جدوى، فطيف لياليه القليلة بماخورها يعتم على ما عاداها، وهمسات شيطانه تنتزعه من بين ذراعيها ليحل مكانهما غريمه، وما أن أشرف الليل على الانتصاف حتى وجد عبدالله الذى كان يفترش بساط الغرفة وهو يقرأ من كتاب، قد نهض متثاقلا وراح يستبدل ما يرتدى من ثياب منزلية بثياب للخروج، لم يكن من حديث مشترك بين الشابين غير ما يتعلق بواجبات كل منهما ناحية الغرفة، من نظافتها إلى الأجرة المطلوبة، ويبدو هذا الحرص وكأنه اتفاق غير مكتوب بين الشيخ الصغير ومحمد نبيل، ومن ناحيته فقد كان راضيا بعزلته، أو كان هناك ما يشغله عن اتفاقهما، وللإنصاف فإن الشيخ الصغير لم يكن فظا كصاحبه، فكثيرا ما كان يسأله أن كانت به حاجة أو كان هناك ما ينقصه، وبالطبع فإن سعيد كان يحرص على عدم سؤاله عن شىء، أو يشكو هما عنده.

استأذن عبدالله فى الانصراف للقاء ما وصفه «باللقاء الهام»، وما أن غادره، حتى راح الآخر يتهيأ لمراقبته، فنحى كتابه واستحضر أذنيه صوب السلم منصتا فى اتجاه خطوات غريمه، ولكن طبلتي الأذنين اللتين كانتا تخرقهما دقات عقرب الساعة ،عجزتا عن التقاط إشارة من حركة القدمين، لا بد أن صاحبهما يتسلل بخفة إلى أعلى، ويحرص كسلفه على ألا تصدر عنهما همسة، إنه المشى على البيض كما يقولون؟ فنهض سعيد على عجل وغادر الغرفة إلى الردهة المتصلة بالسلم، كان الظلام يعشش بالمكان، فى ظلام مشابه اصطدم بخميس بكر فأثار ريبته؟ فهل يصطدم بعبدالله حتى ينزع عنه قناعه؟ ويكشف عن وجهه الحقيقى؟ طالت وقفته بالردهة ووجهه متجه إلى أعلى، لم تجرؤ قدماه على اختطاط درجة أعلى، لو طرق بابها اللحظة فأين ستخفى عشيقها الجديد؟ جاءه صوت حركة أقدام صاعدة من أسفل، فتراجع مسرعا إلى غرفته، وانتبه إلى النافذة التى تتوسط الغرفة فأعتلى حافتها، كانت النافذة تطل على الشارع الرئيس، وكانت الحركة شبه ساكنة، فلمح شبح عبدالله وقد بلغ آخر منعطف منه، كما فوجىء بسيارة بخيت نصف النقل تقف إلى جوار مدخل البيت، هل تجنى على الشيخ؟

هل استشعر راحة؟ ظل مكانه يرقب الشارع دون أن يرى شيئا، وثقلت رأسه حتى عجز عن التفكير فى شىء محدد، وانتبه إلى صوت آذان الفجر فراح يتمتم خلف المؤذن دون أن يفكر فى مغادرة مكانه، حتى داهمه نور الصباح فغلبه النعاس فآوى إلى فراشه، ولا يدرى كم نام إلا ويد الشيخ عبدالله توقظه:

- هذا نوم أهل الكهف؟

فأعتدل فوق فراشه، وهو يسأل عن التوقيت:

- أوشكت الشمس على المغيب

- هل نمت كل هذا؟

كان الشيخ قد توضأ وتهيأ للنزول:

- هل أنت مريض؟

قال دون اهتمام وهو يستشعر جوعا:

- أصابني إرهاق فلم أتمكن من حضور محاضرات اليوم؟

وغادر فراشه ما أن غادره عبدالله، وتوجه ثانية إلى النافذة، فلم يجد سيارة المعلم مكانها، فتساءل: ترى هل اطلعت عشيقها الجديد على سرهما؟



(41)

كان الليل قد انتصف عندما طرق باب شقة خميس، وكعهده استقبله بترحاب، وعندما اتخذ مجلسه تفحصه الرجل باهتمام:

- أكنت تبكى؟

- نمت يوما كاملا فتخلفت عن محاضرات هامة

قام الرجل لإعداد الشاى، بينما انشغل ضيفه بالتطلع إلى الكتب المتناثرة فى الأركان وما أن عاد بكوبي الشاى حتى بادره:

- هل قرأت كل تلك الكتب؟

- وبعضها قرأته مرات، كنت قارئا جيدا فى الماضى، وكان جل دخلى ينفق على شرائها، أما اليوم فقد مللت كل شىء؟ وأحيانا أشعر بالأسى على ما أنفقت فيها

- لا طاقة لى على القراءة، وحسبى قراءة ما يؤهلنى للنجاح؟

- فى هذا الزمان خيرٌ لك أن تعيش الحياة، لا أن تفهمها؟ فأنا قادم من زمان كانت شيمته المعرفة، وعندما وصلت إلى زمانكم اكتشفت أنه زمان البحث عن المال؟ وأحيانا أتساءل كيف وصلت إلى هذا الزمان بهذه السرعة العجيبة؟ وفيما أنفقت كل سنى عمرى؟ كأننى ركبت آلة المستقبل للوصول إلى هذا الزمان، فهالنى ما رأيت؟ خاصة عندما فتشت حافظتى ولم أجد بداخلها مليونا أو نصف المليون أو حتى الربع؟

- لا أعرف من أين يأتي بعض الناس بكل هذه الملايين وبكل هذه البساطة؟

- اسأل المعلم بخيت، فهذا زمانه الذى استوعب منهاجه ، أما آلة الزمن فسوف تقذف بك إلى عالم أنت غير مهيأ لعاداته وقوانينه وربما لسكانه

- بالفعل فقد عرف أمثاله كيف يختارون طريقهم.

- تماما كما عرف كيف يختار لبؤته؟

كأن الوصف الذى استعمله فى الإشارة إلى المرأة أتاح للشاب توجيه دفة الحوار إلى حيث يريد، فسأله:

- وكيف ترى لبؤته؟

- مثيرة وذكية وتعرف كزوجها ماذا تريد

- أتظن أن زوجها يعانى عجزا جنسيا؟

فاجأه السؤال، ففكر للحظة:

- لا أعرف، ولكن ما قالته أم نوال الخاطبة عن حاجته إلى أبناء، فضلا على تعدد زيجاته ينفيان عجزه؟

تنهد الشاب وقال بعفوية، وكمن يتحدث إلى نفسه:

- وهذا ما يؤرق عنبة

وبخبث محنك رمى الرجل سؤاله:

- هل أخبرتك بما يؤرقها؟

انتبه إلى ما خلف سؤاله، فقال مبررا:

- لا أحاديث مشتركة بيننا، هو استنتاج ليس إلا

واستشعر بحاجة إلى التدخين، فأستعار واحدة من سجائر مضيفه، وراح ينفث دخانها ويسعل كمبتدئ، بينما واصل الآخر ضرباته:

- أظن أن رفيقكما الجديد هو الأقرب إليها، ولابد أنه يعرف ما يؤرقها؟

أصابت الضربة الهدف، إذ فغر الشاب فاه وتصلبت ملامحه الهادئة:

- كيف؟

- رأيتهما مرات يتهامسان على السلم، فإن مررت بهما مضى كلا منهما إلى طريقه، ألا يخبرك؟

- لا تجمعنا غير جدران الغرفة، فثمة اتفاق سرى بينه ومحمد نبيل على استبعادى من شأنهما.

وامتدت يده إلى علبة السجائر الخاصة بمضيفه دون استئذان، واستخرج منها واحدة وراح ينفث دخانها من جديد، ولكن بعصبية واضحة:

- كيف ترى أخلاق هذا الشاب، وما هذا التدين الذى يغلف به علاقاته بالناس؟

- الدين المعاملة، وهو يتعامل مع الناس بسماحة تضيف إليه وقارا، وما يقدمه من دعم لبعض الناس يزيد من أهميته عندهم.

قاطعه بغيظ:

- هو لا يعطى من ماله.

- ليكن، أكان الدعم يصل إليهم دونه؟

- إذن أنت تراه صالحا.

- لا، فاستدعاء الدين فى بعض المناسبات يقلقنى، وتبريره لأفعال مالك البيت نموذجا لهذا القلق، وكدنا نتشاجر لهذا السبب.

أطلق الشاب مدافعه الممتلئة بالغيظ والحنق:

- هذا شيخ مزيف، وهو يذكرنى براهبك راسبوتين، فغايته الإيقاع بالنساء، إذ كيف تفسر علاقته بأرملة الخياط؟ هل تقوم بغسل ثيابه وكيها نظير حمل مريضها إلى المشافى؟ هل دعمها بكيس من الأرز أو زجاجة من الزيت يتطلب المكوث فى بيتها إلى وقت متأخر من الليل؟ هل يجوز لفاعل الخير أن ينال أجرًا دنيويًا عن فعله؟

ثم واصل هجومه بغضب أشد:

- وماذا عن لقاءاته بزوجة المالك على السلم، ألا تعد من الكبائر؟

استوقفه الرجل عامدا:

- هل تعرف هذه النكتة المشهورة عن هذا الشيخ الذى أفتى بهدم الحائط إذا تبول عليه كلب، فلما تبول الكلب على حائط بيت الشيخ نفسه جاء بفتوى مضادة مفادها أن القليل من الماء كاف لتطهير الحائط؟

- ماذا تقصد؟

- أكانت أرملة الخياط أو كانت عنبة فالفعل واحد، والملاحظة - دون غضب- أن ردة فعلك تناقضت من امرأة إلى امرأة، وأنا اتفق معك، فعنبة نموذج للأنوثة الصارخة، أما أرملة الخياط فتذكرنى بجاموسة فى قريتى ترهل لحمها وباتت رؤيتها مقززة للآكلين .

لم يستطع أن يكتم انفعالاته، فواصل غضبه:

- من هذا العبد الله حتى تقبل به عنبة؟

أرضاه غضبه، فراح يعمل على تأججه:

- المرأة بشكل عام يثيرها فى الرجل أولا وقبل كل شىء شبابه، وهو ما يجعل فرصتى مستحيلة بالمقارنة إليكما، فضلا على خواء حافظتى، وهو الشىء الذى قد يجبرها على التغاضى عن فتوة الشباب ولو إلى حين

انتبه فجأة إلى محدثه فتساءل بحنق:

- ما الذى تعنيه بقولك« بالمقارنة إليكما»؟،-

وكان الرجل هو من قدم له السيجارة الثالثة دون أن يطلبها، وهو يجيبه بهدوء:

- أعنى فارق العمر بلا زيادة أو نقصان

هدأ قليلا، وراح يتساءل:

- قد لا يقبل الرجل بامرأة واحدة، فماذا عن النساء؟

قال عامدا:

- الإنسان هو الإنسان، أكان ذكرا، أو كانت أنثى.



(42)

ما أكثر زواره هذه الأيام؟ فمرة آخري وجد نفسه مطلوبًا لمقابلة ذات الضابط؟ فتوجس شرا، وراح يسأل الجندى الذى يقف على باب الشقة:

- هل ظهر قنديل؟ أو عثرتم على جثته؟

- لا أعرف؟

- إذن فيما الاستدعاء؟

- لا أعرف؟

فقال ببساطة:

- أذن تفضل أنت وسوف ألحق بك بعد أن أحلق ذقنى، إذ لم أعتد مغادرة البيت دون نعومتها؟

قال الجندى دون أن يبرح وقفته:

- بل يجب أن تأتى معى الآن؟

- أن رافقتك ظن الناس أننى لص أو متهم بجريمة ما؟

- لا شأن لى بما قد يظنه الناس، ما يعنينى هو تنفيذ أوامر سمير بك، وأوامره هى اصطحابك فورًا إلى مكتبه.

أدرك عبث جدله مع الجندى، فدعاه بطيبه إلى الدخول وانتظاره حتى يتهيأ للخروج، فرفض الجندى بإصرار، وقال مهددا :

- لا سبيل إلى خداعى، ولن أمكنك من الهرب، وعليك الاختيار بين الطاعة، أو حملك بالقوة، وأن أصابك ضرر؟

واستشعر أن الجندى قد لا يتورع فى إطلاق رصاصة من سلاحه الحكومى، محتميا بقانون سنه ضابطه، فما الذى يعرفه الجنود عن القانون غير ما يقول به الضباط؟، فآثر السلامة ومضى بصحبته وهو يتحسس شعيرات وجهه بضيق، وقد أفلتت منه ابتسامة مُرة عندما مد الجندى قبضته وأطبق بها على ساعده وهما يهبطان درجات السلالم، وتصادف صعود الست عنبة فى تلك اللحظة فهالها ما رأت، أما هو فقد داهمه شعور بغبطة غامضة، فصاحت بجزع صادق:

- لماذا؟

اشتدت قبضة الجندى على ساعده عندما توقف خميس لتحيتها، وكانت لديه قدرة هائلة على السخرية من المشهد:

- لا تنزعجى، فعلى الشرطة أن تستوثق من عدم ضلوعى فى الانقلاب الذى وقع فى شيلى؟

كان على ثقة أنها لم تسمع بدولة اسمها شيلى؟ وربما لاتعى معنى انقلاب؟ ولكنها بالتأكيد استشعرت بسخريته، فقالت بعاطفة صادقة:

- هل يتعلق الأمر بقنديل؟

- وهل هناك سواه

- ما الجديد؟

- لا أعرف؟

لم يمهله الجندى فرصة طويلة للتلذذ بهذا الجزع الذى يرتسم بملامحها المثيرة، فأطاع حارسه فواصل مضطرا طريقه بصحبته، وقد استأذن فى تدخين سيجاره، ثم خطر له أن يسأله :

- هل تعرف طومان باى؟

- من؟

- لقد فشلوا فى شنقه مرتين على باب زويلة، ولكنهم نجحوا فى المرة الثالثة؟

لم يعره الجندى اهتماما بما يقول، فواصل استطراده:

- هل تعرف لماذا شنقوه؟

أجابه الجندى وهو يصطنع الذكاء:

- أنا لا أعرف رجلا بهذا الاسم، ولا أعرف لماذا شنقوه، وما أعرفه انه لا يوجد رجل يجرى شنقه غير مرة واحدة

- لهذا اعتقد العامة أنه ولى من أولياء الله الصالحين، ألا تؤمن بالمعجزات؟

تجاهل الجندى هلوسته، وراح يحثه على الإسراع:

- التعليمات لا تسمح للجنود بالحديث مع المجرمين، فإن لم تكن أنت من شنق طومان باى هذا، فسوف يظهر الله براءتك

ابتسم، رغم ما يعتريه من قلق، ابتسم.

(43)

عندما وصل إلى القسم بصحبة حارسه، كان الضابط سمير معاذ قد غادره لشأن من شئون العمل، فمضى به الجندى إلى الضابط الاحتياطى، كان الضابط منهمك فى حديث تليفونى، فسأل خميس على عجل وهو يتفحصه:

- ما هى تهمتك؟

- لا تهمة على الإطلاق

- لماذا استدعاك سمير بك إذن؟

- الأمر يتعلق باختفاء جار منذ أسابيع.

خاطب الضابط الجندى وقد تجاهل قول الرجل:

- « لقحه» فى الحجز إلى حين عودة سمير بك.

ضايقته لغة ضابط الاحتياط، كما أثاره قراره غير المبرر، فصاح محتجا:

- ما معنى لقحه هذه؟ ألست مواطنا ذا كرامة؟

رمقه الضابط بوجه جامد، وقد احتضن سماعة التليفون:

- كيف تجرؤ على رفع صوتك أمامى؟

اختنق صوت خميس وهو يستطرد بذات الانفعال:

- لقد جئت فور استدعائى، ومادام من استدعانى غير موجود فيجب أن أعود إلى بيتى إلى حين عودته؟

تجاهله الضابط، ثم نظر إلى الجندى نظرة حملت مغزى، إذ قام الجندى على الفور بدفع خميس ناحية الخارج، فقاومه بما يشبه البكاء:

- هذا تجاوز للسلطة، واعتداء سافر على القانون.

خارت مقاومته أمام قوة الجندى التى اتسمت بالعنف، فأطاعه حانقا، وما أن وصلا إلى البدروم حتى وجد الجندى يسوقه إلى اتجاه معاكس لغرفة الحجز،أتراه ضل الطريق؟ وفى نهاية ممر طويل خلف غرفة الحجز اكتشف وجود مدخل إلى غرفة ثانية أشبه بسرداب مظلم، استقبله عندها عملاقان، فتحدث إليهما الجندى بما لم يفهمه الرجل، وإذا بأحد العملاقين يدفعه بقوة إلى داخل السرداب، بينما بادره الآخر:

- ما هو اسمك؟

ما كاد يلفظ باسمه حتى تلقى منه لطمة:

- وما هو اسم أمك؟

صرخ باستغاثة:

- ماذا تصنعان؟ الويل للجميع

كانت تلك آخر كلماته حسبما يذكر، إذ تلقى على أثرها ما لا يحصى من اللكمات حتى غاب عن الوجود، وعندما أفاق بعد ساعات لا يدرى عددها، وجد نفسه ممدا على بساط مترب فوق أرض الغرفة التى جرى احتجازه فيها أول مرة، حيث قضى أيامه الثلاثة الأولى، متى نقلوه إليها؟ راح يتنفس مرات قبل أن يعتدل جالسًا، وقد بدأ يستعيد ما أصابه، ولأول مرة يكتشف اتساع حجم الغرفة، ربما لقلة روادها بالمقارنة إلى المرة السابقة، كذلك بدت الوجوه كلها غير الوجوه، باستثناء وجهه، أين صاحب نظرية «كبر دماغك؟»، واستشعر بعدها آلاما بفكه وصدغيه، وداهمته رغبة فى التدخين، فامتدت يده لاستخراج علبته، فلم يعثر لها على وجود، كما بوغت بحافظته إلى جواره وقد اختفى ما بداخلها من نقود، فاستشاط غضبا فصاح:

- أين سجائرى ونقودى؟

رمقته عيون، فواصل صياحه:

- من سلبهما؟

لم يتلق جوابا، ولكنه لمح عيونا ترنو ناحية جسد ممدد فوق الدكة القريبة من الباب، فنهض رغم آلامه واقترب بحرص من الجسد الممدد، فهاله أن صاحبه صبى ربما لم يتجاوز السادسة عشرة أو أكثر قليلا، وبدا وجهه ممصوصا كوجوه المدمنين، فسأله بحرص:

- ألم تر سجائرى ونقودى؟

وقبل أن ينتهى من سؤاله تلقى وابلا لم يتوقعه من السباب والشتائم، من أى قاموس استعارهما الصبى؟ فلاذ بالصمت تجنبا لصدام، وهم بالعودة إلى مجلسه والصبى يقول:

- لم يقترب أحد منك منذ جاءوا بك ورموك على الأرض كالكلب؟ فأسأل عن نقودك وسجائرك حيث كنت؟

فهز رأسه وهو يفترش بساطه المترب، وما هى إلا دقائق حتى عاد يقول وقد اشتدت حاجته إلى التدخين، فقال وعيناه فى اتجاه الصبى:

- فليقرضني أحدكم سيجارة حتى طلوع النهار؟

فرمى الصبي بواحدة ناحيته، فتلقاها شاكرا، كانت من النوع الذى يدخنه، ولكن ما السبيل إلى استرداد أملاكه من مدمن كهذا؟ الا يلزم القانون الشرطة بتأمين أملاك من«تلقحهم» فى عقر دارهم؟ وما هى إلا ساعة حتى عاودته الرغبة فى التدخين، فتحمل عبء النهوض إلى سارقه، ومثل أمامه فى خنوع، وقال كالمتسولين:

- هبنى سيجارة أخرى؟

لقاه الصبى بعبوس، وقال بوقاحة لا تنقصه:

- مقابل ماذا؟

ابتسم فى سخرية مرة:

- كما ترى؟ لم أعد أملك شيئا.

- إذن اذهب وابحث عن سارقك.

تنهد فى يأس وهو يقول راجيا:

- تكفيني سيجارة أخرى.



(44)

أخيرا عرفت الأفراح طريقها إلى بيت السقا، فقبيل الضحى انتبه الحضور من السكان على أصوات زغاريد تتواصل من شقة صاحب البيت، وبالطبع فقد دفع الفضول بالبعض- خاصة النساء -للصعود إلى أعلى لاستطلاع المناسبة، وكانت أسرعهن الست فوقية أرملة الخياط، بينما تباطأت أرملة عم فوزى، إذ ساءها أن تطلق الزغاريد وما زال جثمان بعلها فى قبره لحما طريا، لم يعد الجار يراع أحزان جاره، وعندما وصلت النسوة إلى الدور الرابع،

كان باب شقة المعلم بخيت مفتوحًا على مصراعيه، وفى مدخله ظهرت الست أم عنبة والى جوارها قريبة لها، وكن هن مصدر تلك الزغاريد التى ما زالت تتواصل، وخلفهن كانت تجلس عنبة على احد المقاعد،

وكان ثمة حياء قلق يتبدى على وجهها المستدير، توقفت أم عنبة لتلقى بالبشرى على من حضرن وهى تدعوهن بترحاب صادق إلى الدخول- :

-الحمد لله، ابنتي حامل، سيرزق المعلم بخيت بمولود

ما كاد النبأ يصل إلى آذانهن، حتى فغرت الأفواه وتحركت الألسنة لتملأ البيت بالزغاريد المبهجة:

- ليتم الله حملها بسلام

-وقالت الست فوقية:

-بالصبر ينال المؤمن مراده

وقالت إحدى الجائعات:

- انذري شيئًا للفقراء

أشاحت أم عنبة بيدها مؤكدة:

- شاه بل بقرة

كانت صالة الشقة قد امتلأت بالنسوة، كما كانت السلالم قد ازدحمت ببعض السكان الجدد، ولو قدر لخميس بكر الذى غاب عن المشهد أن يرى وجه عنبة فى تلك الساعة لاكتشف سر الحياء حين يختلط بالجمال الصارخ.



(45)

نقل عن أحد العاملين مع المعلم بخيت، إن الرجل- المعلم -ما أن تلقي الخبر على هاتفه المحمول، وكان فى موقع عمل، حتى رقص كالنساء، وهلل كالأطفال، حتى خشى-الراوى-إن يصيب الرجل مكروه من شدة الفرحة وعدم التصديق، وعلى الفور ترك المعلم موقعه، وأناب لأول مرة رجلا من العاملين معه لإدارة العمل مكانه، وفى الطريق إلى البيت كان يقود سيارته النصف نقل بسرعة تتجاوز المائة كيلو، حتى أن مرافقه فى السيارة كان فى انتظار مصيبة ستلحق بهما جراء تلك السرعة المجنونة.

ومن المؤكد أن الست عنبة استشعرت راحة- وهى تستمع للراوى - عن ردة فعل زوجها هذه، خاصة عندما مثل إمامها ورأت ملامح السعادة الطاغية على وجهه، وفى حديثه إليها، وكذلك وجدت أمها فرصتها فى لوم الرجل وتوبيخه فيما كان ينتويه، فقال صادقا:

-لننسى الماضى ما دام المراد قد تحقق بفضل من الله.

فبادرته زوجه بحدة:

-وكيف أثق بك وقد خالفت وعودك؟

فقال راجيًا:

-فلتهدئى حتى يكتمل حملك بسلام، وأنا رهن طلباتك كلها

فأطرقت فوق الحديد الساخن:

-البيت؟

تراجع قليلاً، ثم قال:

-البيت لابنك إن كان ذكرا

-وإن كانت أنثى؟

-ذكرا إن شاء الله، وما دامت الغمة قد زالت، فسوف تتوالى ذريتنا بلا انقطاع

-وما مكافأتى؟

-لك من الحلى ما تشتهى

قالت بإصرار لا ينقصه التحدى:

-ليس ذلك فحسب، بل دكانا بالبيت

-ولكن ما من دكان بالبيت

كانت الإجابة جاهزة:

-مخزن الأخشاب بالدور الأرضى يمكن استقطاع ركن منه ليكون دكانا

تفكر لحظة قبل أن يتساءل

-وما حاجتك إلى دكان؟

قالت بحماسة:

-مشروع لبيع الدواجن الحية

راقته العقلية التجارية، كأنها اكتسبتها من معاشرته:

- فكرة لا بأس بها، ولكن ماذا نعرف نحن عن الدواجن؟

قالت ببساطة:

-كانت هذه مهنة الشيخ عبدالله الذى يسكن بشقة العزاب، فهو مفيد وعلى خلق، وأن كنا لا نثق فى نواياه؟

أمن على قولها:

- نحن نثق فى أنفسنا وهذا هو المهم، فبإشارة من إبهامى لصبى من صبيانى كاف لتلقينه درسا يرده إلى ما نريد.

وفى ساعة صفا، راحت تقص على الرجل كيف اكتشفت حملها، فقد تأخر الموعد المعتاد لدورتها الشهرية، فراودتها ظنون أخفتها عنه حتى تستوثق منها، ثم همست بها عند أمها،

فاصطحبتها إلى قريبة لها على دراية بتلك الأمور، فبشرتها بالخبر السعيد، ولكن الفرحة الحقيقية جاءت باليقين من زيارة لطبيبة أمراض النساء، إذ طلبت الطبيبة اختبارا للتأكيد، ولم تنسى عنبة أن تؤكد لزوجها:

- لقد كانت سعادتى الحقيقية هى من أجلك، وليس للحمل فحسب.



(46)

ما أطول الليل فى هذه الغرفة، فالنهار لا يأتى قبل إحباط من ينتظره، فما بال المدخن القابع دون تدخين؟ خصوصا وسارقه يضجع وحده على دكة أمامه يدخن من سجائره وهو عاجز عن ردعه، وعندما طلع النهار أخيرا جاء معه زائر أثلجته زيارته، إذ ناداه حارس الزنزانة وسلمه لفافة من طعام داخل كيس من البلاستيك:

-هذه من شاب يدعى سعيد الدسوقى؟

-وأين هو؟

-يمكنك أن تتحدث إليه عبر تلك النافذة، فالزيارات ممنوعة.

فشب مسرعا إلى نافذة الباب المحاطة بأسياخ الحديد، حتى لمحته عيناه يقف خلف الحارس الذى كان يحثه على المغادرة قبل مرور الضابط المسئول، صاح خميس باستغاثة:

-سعيد، لا أعرف كيف أشكرك، ولكننى فى حاجة إلى السجائر أكثر من الطعام، فقد سرقت سجائرى ونقودى.

غاب الفتى بعض الوقت ثم عاد وهو يحمل علبتين من سجائره، وسمح

له الجندى بتقديمهما إلى الرجل، فتبادلا نظرات سالت عنهما دموع لا إرادية:

-لماذا احتجزوك ثانية؟

-من احتجزنى هو نفسه لا يعرف لما احتجزنى؟ وما يقلقنى أن يطول احتجازي دون سجائر كافية؟

- أن لم تغادر محبسك اليوم عاودتك غدا بها تحتاج.

عاد الحارس يطلب من الشاب سرعة المغادرة، فعاد خميس إلى مجلسه محزونا، وما كاد يفتح لفافة الطعام حتى ظهر سارقه قبالته وعيناه ترقب لفافته:

-الآن يمكنك تسديد ما عليك من دين؟

لو أمتلك فى تلك اللحظة قوة سوبر مان الخارقة لوضع حد لوقاحته؟ لكنه لا يملك غير لفافة طعام فقير، فمنحه- كارها- شيئا منها، وراح يتناول طعامه وقد عقد

العزم على رد القيمة المالية للفتى، فما هو إلا تلميذ يحتاج إلى ما تجود به جدته من نقود؟ وقبل أن ينتهى من طعامه جاءه من يستدعيه لمكتب سمير بك معاذ، فوهب ما تبقى من طعام إلى رجل كان يتابعه وهو يأكل، وما كاد يمتثل أمام الضابط حتى قال الضابط:

-لا تؤاخذنى، فقد كان هناك ما استوجب غيابى؟

لم يعلق تجنبا لإغضابه، ووجد نفسه يجلس على مقعد قريب من مكتبه دون استئذانه، فرمقه الآخر بنظرة جامدة، فقال مبررا:

- لا تؤاخذنى أنا أيضا، فانا اشعر بإرهاق شديد، فلم اعتاد مثل هذه الأمور

تقبل الضابط مبرره، ثم فاجأه:

-هل تريد شايا؟

لم ينبس، أكان يسخر منه؟ ولكن الضابط استدعى المخبر الجالس على الباب وأمره بإحضار كوب من الشاى، وراح يتحدث إلى خميس:

-أنا لا أنوى احتجازك مرة أخرى؟ ولكننى قد اضطر إلى إرسالك إلى مباحث أمن الدولة أن لم تصدقنى القول؟ هل تعى ما أمن الدولة؟

اضطرب فى خوف وهو يقول:

-لا أعرف غير الصدق، ولا أقول غيره

باغته الضابط:

-أكان لقنديل علاقة بأجانب؟

-لا أعرف؟

كان وجه الضابط يشى بغضب يقلقه:

-ألم يزره أجانب فى غرفته؟

-لا أعرف؟ وأكاد اجزم أن لا أجنبيا أو محليا زاره على الإطلاق فى غرفته؟

- أو خارج البيت؟

كانت دقات قلب خميس تكاد تسمع وهو يتحدث:

-أما خارج البيت فلا أعرف من أمره شيئا؟

تنهد الضابط وراح يقلب فى أوراق على مكتبه:

- كيف كانت علاقتكما؟

-علاقاتنا لم تتجاوز التزاور والثرثرة كجارين ، فنحن من جيلين مختلفين، هو يتأهب ليكون صحفيا، وأنا أهتم بالشأن العام

-كيف؟

-هواياتى القراءة وليست عندى مآرب أخرى، فلا زوجة ولا أولاد

عاد وجه الضابط إلى صرامته المخيفة، ورنا مرة أخرى إلى أوراقه:

-ألم يذكر فى ثرثرته معك اسم رجل يدعى

راسكولينكوف؟

صعقالاسم أذنى خميس، فتنهد وهو يكرر:

-راسكولينكوف !

اعتدل الضابط فى جلسته، بينما راح خميس يستطرد:

-أنا من حدثته عنه، فراسكولينكوف هذا ليس شخصا حيا، بل شخصية روائية.

كان الضابط يستمع باهتمام:

-كيف؟

-هو اسم البطل في رواية لأديب روسى اسمه فيودو ديستويفسكى، وعنوانها«الجريمة والعقاب» وقد استعارها قنديل من مكتبتى الصغيرة قبل اختفائه ببضعة أيام.

بدا الضابط مأخوذا مما يسمع، ولعل خميس قد أدرك أنه بما قال قد قطع الخيط الذي كان الضابط يعتقد أنه البوصلة التى قد تقوده إلى سر الغائب؟

اذ عاد الضابط إلى أوراقه ثانية وراح يقلب صفحاتها في صمت، بينما استشعر محدثه بمزيد من السكينة، وراح يلوم داخله تأخر المخبر فى إحضار الشاى، كم هو فى أشد الحاجة إليه فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى، وقطع الضابط الصمت وهو يرنو لشعر محدثه الثلجى، ثم قال بهدوء حذر:

-حدثنى كصديق عن هذا الراسكولينكوف؟ ولماذا سجل صديقك اسمه فى أوراقه وكأنه شخصية حقيقية يتحدث اليها وتتحدث إليه؟



(47)

يوم آخر عصيب جرت إضافته إلى أيامه البائسة، ولكن ثمة شعورا بالرضا غشاه وهو يغادر القسم، فقد كانت محاضرته عن راسكولينكوف دليل أستاذيته، ألم يعره الضابط كل حواسه لنصف الساعة؟ ألم يمد إليه يده ليودعه بإعجاب؟ لعلها إشارة إلى نهاية أيامه العصيبة، فهل يستعيد لياليه الخالية من الكدر، وينام قرير العين؟ ولم يفوته صب اللعنات على المخبر الذى لم يحمل إليه الشاى؟ لو أمر الضابط الجندي الذى اصطحبه من شقته لحمله إليه على الفور؟ ولولا حاجته إلى حمام ساخن لمضى إلى مقهاه وقص على أمين زكى ما كان منه اليوم، وتذكر أنه لا يحمل نقودا، وكان مكتب البريد قد أغلق نوافذه، فغادرته نشوته وسكنته كآبة، كيف سيقضى ليلته حتى الصباح؟ لم يسبق له الاقتراض حتى فى أحلك أيام الجفاف، ألا تمنحه أستاذيته حق العودة إلى الضابط ومطالبته باستعادة سجائره ونقوده من لصه الوقح؟ عليه أن يتأهب لإلقاء محاضرة فى مسئولية الشرطة عن تأمين محتجزيهم، ولكنه عدل عن محاضرته عندما وصل إلى البيت، إلا يصادف عنبة فيسألها قرضا حتى يفتح مكتب البريد نافذته؟ محال، يكفيه قص محنته عندها، وفيها ما يكفى لإقراضه دون طلبه، هو واثق من ردة فعلها،

ولكنه لم يصادف أحدا، لا فى صعوده أو بعد مغادرته البيت إلى مقهاه، أطربه وجود أمين زكى مع نارجيلته عند مجلسه، فأفاض فى رواية قصته منذ جاءه جندي لاستدعائه، إلى مقابلة ضابط «لقحه» ، إلى ما كان من العملاقين، إلى سارقه الوقح فزيارة سعيد، فمحاضرته الرسكولينكوفية، وبالتأكيد فإن الراوى أضاف ما أضاف وحذف ما حذف حسب ما فى نفس يعقوب، والحق أن الإضافة والحذف كانتا لإضفاء إرادة الصمود فى مواجهة المعتدين، وقد اختتم الرجل روايته بإعادة التأكيد على حافظته الخالية من النقود إلى صباح الغد، ورغم ذلك تجاهل نديمه إشاراته، وراح يقترح عليه نقل مدخراته إلى احد البنوك:

-آلات الصراف الآلى اليوم فى كل شارع، وهى تعمل طوال الليل والنهار، وحتى أيام العطلات.

فكرة لأبأس بها، ولكنها لن تحل مشكلة الساعة، وغادره أمين زكى بلا مبالاة، فلعن نذالته فى نفسه، لم يعد أمامك غير النادل، فهل تعيد روايتك أمامه؟ أى فضيحة تنتظرك إن كرر النادل نذالة أمين زكى؟ ورأى بائعة المناديل وهى تدلف إلي داخل المقهى وخلفها طفلها، فتجاهلها، ولكنها ما أن انتهت من جولتها المعتادة حتى جاءته،

وبجرأتها المعهودة جلست حيث كان يجلس نديمه، قال راجيا:

-العيون تراقبنا فحاذرى.

لوت شفتيها وقالت فى غير مبالاة:

-هذا مكان عام، والجلوس فيه مباح، وليس لأحد ولاية عندى؟

تنهد واحتمل.

-حسنا، وماذا تريدين؟

-عندى مكان يصلح للقائنا، وهو آمن تماما؟

-إذن تريدين تسديد دينك؟

-وهل أنا مدينة لك؟ ما حصلت عليه هو ما اتفقنا عليه من أجر؟

-اجر مقابل لا شيىء

عادت لى شفتيها وبنبرة حاسمة:

-ألم أمضى معك إلى حيث اخترت؟ أكنت المسئولة عن سوء اختيارك؟

-إذن لم تكن مؤامرة من ناحيتى كما زعمت؟

-ما يعرضنى للمخاطر إلا حاجتى للمال؟

- وقد حصلت عليه، فاذهبى الآن بسلام؟ فلن تصدقيننى إن قلت لك أن نقودى سلبها نشال؟ ولا أعرف حتى كيف أعطى النادل أجرته؟

فاجأته بما لم يتوقعه:

-لا عليك، اطلب ما تريد؟ كم تحتاج؟ ومتى التسديد؟



(48)

شاغله اليوم هو متابعة نمو بطن زوجه، ومنذ زف إليه الخبر السعيد وهو يغدق من ماله برضا على عماله وعلى من يصادف من محتاجين، وبالطبع فهو لم ينس الشيخ بسيونى، وقد طلب اليه راجيا أن يسامح زوجه وحماته على ما كان منهما فى حقه، كما طالبه بالدعاء لاستكمال حمل زوجه بسلام.

بدا المعلم فى تلك المرحلة وكأنه شخص آخر؟ هو نفسه تشكك أن يكون ذات الرجل، فأين بخيت الذى ضاقت به بلدته فهجرها إلى القاهرة صفر اليدين، ليعمل فى مجال البناء، وهى مهنة مجهدة تأخذ من أبنائها أكثر مما تعطيهم، ولكن مهارة المهاجر وجرأته على المجازفة، نقلته من عامل يومية إلى مورد للعمالة، ولم يكن أسهل من توفير الأيدى العاملة من جنوب مصر الطارد للسكان، وكان هو واحدا من مطاريده، فذاع صيته، وتباهى -فى الوقت نفسه -بأنه استقبل أبناء بلدته، والبلاد المجاورة لها، وهم معدمون، فآواهم، وأطعمهم، ووظفهم، وبالطبع فهو لن يقبل أن يذكره أحد بأن وجودهم كان مصدر الدخل الحقيقى لأرباحه، وسرعان ما تحول مورد العمال إلى مقاول تسند إليه عمليات هدم وبناء،

وقد اشتهر بجرأته في هذا المجال، فلم يعقه وجود تصريح بالهدم، فسرعة الانجاز هى الفيصل فى خلق أمر واقع يجبر الآخرين على التعامل معه، وقد عرف قيمة المال وأهميته، ومنذ أول أجر تقاضاه، فلم يبسط يده بعيدا عما آلفه فى بلدته، فطعامه هو ذات الطعام، وجلبابه لا يبدل حتي يصير خرقة لا يصلح معها الترقيع، وعندما ضاقت حافظته المصنوعة من القماش عن حمل ماله عرف الطريق إلى البنوك، كما استوجب تقدم السن ضرورة الزواج لإنجاب جيش من الأبناء لإنفاق ثروته، فوكل أمره إلى أمه، وجاءت الأم بالزوجة الأولى، ثم الثانية، ولكن ما من بشرى بوريث، وهو رجل لا يعرف الإحباط مسلكا إلى أحلامه، فلمن يترك كل هذا النعيم الذى جاهد فى جمعه؟ ولا عرف اليأس قلب أمه وآمالها، فلم تنقطع زياراتها عن طرق أبواب الأولياء والعرافين، فأتفق أكثرهم على ضرورة الزواج بأخرى، فالسحر الأسود الذى مس ابنها لا سبيل لفك طلاسمه إلا بتعدد زيجاته، وما أن صادف عنبة حتى رجا أمه أن تنسى بنات بلدتها، فالقاهرة الكبيرة أصبحت هى موطنه الجديد، وكان واثقًا من رضاها، بعد تجربتى زواج كان فيهما مثالا طيبا للابن البار، ولأن لكل وطن سلوا، فكان عليه أن يطرق أبواب الأطباء، وهو يتذكر أول طبيب أضطر إلى زيارة عيادته،

وقد حرص أن تكون الزيارة بعيدة عن علم زوجه ومعارفه، إذ أى عار سيلحق بهذا العملاق القادر على خوض معركة ضد عشرة أفراد؟ بينما يعد الناس تخصيب بطن امرأة هو المقياس الحقيقى للرجولة؟ كيف يقر أمام طبيبه بعجزه، بينما هو يملك عضوا ذكريا قادرا على الانتصاب؟ كم كان جاهلا فى تلك الأيام؟ وتذكر أمه فرأى ضرورة زيارتها ليبشرها بانتصاره على فك طلاسم من سحرته.

(49)

كان يقف فى صالة فرع البنك الأهلى بشارع شبرا، وبيده رزمة من الأوراق المالية، فى انتظار دوره لإيداع أمواله عملا بنصيحة أمين زكى، فهاله وجود الست عنبة داخل البنك، كانت تجلس على مقعد أمام مكتب موظف يقوم على خدمتها، وقد وضع أمامها كوبًا من الليمون، فبدت وكأنها من العملاء المميزين، راح يتابعها من موقعه، كان ثمة حديث باسم يدور بين الموظف والعميلة، وكانت جلستها هادئة تنم عن ثقة، ظل يرقبها حتى غادرت الموظف وقد حملت أوراقا أودعتها حقيبة يدها، وقد قام الموظف لوداعها، وبجرأته المعهودة اعترض طريقها وهى تغادر، فانتبهت لوجوده، وقد تفاجأت حقا، فتبادلا التحية، وهى تقول:

-إذن أنت أيضا من عملاء البنك؟

-ولكن من غير المميزين.

تجاهلت إشارته، وراحت تسأله:

-متى أفرجوا عنك؟

-بالأمس فقط.

رغم أن المكان لم يكن يسمح بالقص، فلم يجد غضاضة فى سرد روايته، كما لم تجد هى أيضا غضاضة فى الإنصات إليه، وإبداء تعاطفها مع ما أصابه، فثمة ضعف ينتابها ناحية الرجل، ربما لكبر سنه،

وربما لاستحسانها إلى أحاديثه العجيبة، وقد علقت على روايته:

-لو جئتني لأقرضتك ما تريد، حتى وإن لم ترد الدين

أطربه قولها مؤكدا أنه دليل على نبت طيب وأصيل عند أبناء البلد الحقيقيين.

ولم يفوته بالطبع تقديم تهنئته الخاصة بحملها السعيد، وعندما ودعته تساءل الم يكن الأجدى أن يسألها عن الأب البيلوجى للطفل؟ أو يهنئها على سلبها لأموال بعلها؟ ولكنه لم يجرؤ علي الهمس بما عنى له من تساؤلات، فغادر البنك بعدها بساعة، متوجها إلى مقهاه، وكانت أول اهتماماته هو البحث عن بائعة المناديل، فقد كان قرضها- بغض النظر عن مصدره - هو ما حفظ ماء وجهه من التذلل للنادل، كما عفاه من حرمانه من التدخين؟ وقد أسف أن تكون البغى أكثر مروءة بالمقارنة إلى نذالة صديقه أمين زكى!



(50)

هل هذا يوم المصادفات؟ تساءلت عنبة وقد تفاجأت بسعيد الدسوقى يعترض طريقها وهى تسير بشارع شبرا، بعد أن غادرت البنك، أكان يتابعها؟ بدا أمامها فى حالة يرثى لها، وأن كان يتظاهر بالتماسك، فتلقت طلته المفاجئة بوجه صارم:

-أنت؟

إخافته ملامح وجهها التى لم يعتدها:

-كيف تجرؤ على اعتراض طريقى؟

قال وهو يحاول السيطرة على اضطرابه:

-معاذ الله أن يكون هذا اعتراضا لطريقك، ولكنه لقاء للعتاب؟ فلا أعرف سببا لجفائك المفاجئ، خصوصا أن تليفونك أصبح خارج الخدمة.

منحها تراجعه مزيدا من الهجوم، فواصلت بلا حياء:

-أي عتب على هجر غواية جرنا إليها الشيطان؟ ألا يغفر الله الذنوب للتائبين؟

أفرغ بعفوية ما بداخله:

-أتشمم رائحة عبدالله فى حديثك؟

باغتته بدفعة من قبضتها:

-احترس مما تقول فأنا سيدة متزوجة من رجل ذي بأس شديد

تجمد كلوح ثلج علي ذكر اسم زوجها، فخفت حدتها عندما تبدى الخوف على ملامحه:

-اهتم بدروسك ولا تدفع بنفسك إلى التهلكة؟ وخيرا لك أن تنسى ما كان فلا تتبعك عواقبه

ثم دفعته بقوة لإزاحته عن طريقها، فأطاع دون مقاومة:

-إذا أردت أن تختار لى عشيقا، فأبحث عن من لا يعد النساء هن أصل كل بلاء؟ وكأن الله قد خلق النساء من طينة غير تلك الطينة التى خلق منها هذا العبد الله؟

قال ليستوقفها راغبا فى التوضيح:

-هذا العبدالله يقول غير ما يبطن، وعلاقته بأرملة الخياط لم تعد خافية لكل ذى عينين؟

قاطعته مهددة:

-هذه الغيرة السوداء، هى ما تجعلك تتهم الناس جزافا، فإن لم تعد إلى رشدك جلبت على نفسك المصائب.

قالت كلمتها ومضت، فلم يجرؤ على النطق، ولا أطاعته قدماه على تتبعها.



(51)

إن لم تعد إلى رشدك جلبت على نفسك المصائب؟.هذا هو الفصل الأخير فى قصتكما، ولكنها أقصر قصة عرفها، فكتابتها لا تملأ صفحة واحدة، خصوصا إذا جاءت نهايتها بفاجعة تتناقض مع بداياتها، وآمن أن ظهور هذا العبدالله هو ما عجل بتلك النهاية المخزية، فهل يستطيع مجابهته؟ أين أنت من معسول كلامه؟ أو من جرأته؟ أو حتى من علاقاته الغامضة؟ هل الناس طيبون إلى الحد الذى لا يستطيعون فيه التفرقة بين الخبيث والطيب؟ وإذا كان خداعهم طوال الوقت مستحيلا فلنستثنى جنس النساء، فللسان المخادع بريق الذهب وهو معدنهن الأثير

كان يهيم فى الشوارع القريبة من المكان الذى تركته فيه عنبة، وقد عجز عن الوصول إلى قرار بشأن علاقاتها التى لفظته خارجها فجأة، ومع قدوم الليل عاد مهزوما إلى البيت، ولكن ثمة ضيقًا بصدره جعله يطرق باب عم خميس، استقبله الرجل بترحابه المعتاد، وقد لاحظ ما به من هم، ولكنه لم يشأ سؤاله حتى يفيض الآخر بأحزانه :

- هل تعرف من هو العدو الأول لجيلى؟

- أظنه الشعور بالإحباط من المستقبل؟

– انه الفقر

– هذا عدو كل الأجيال منذ أصبح لآدم ذرية فى هذه الأرض

– لماذا أنعم الله على البعض بالثروة، وقترها على باقي العباد؟

– أظن أن العيب فينا، فالرضا بالخبز الحاف نصيب من لا حيلة لهم، أما الثروات فهى حكر على كل من يستطيع فرض قانونه على الآخرين.

– مازلت اذكر حديثك عن راسكولينكوف، فهل استطاع فرض قانونه على الآخرين؟

– راسكولينكوف كان يريد أن يكتشف نوع القوة الكامنة داخله، أن كانت جسارة نابليون أو كان هو قملة كباقي الناس؟ فداخل كل منا قوة خفية استدعاؤها يتطلب شجاعة لا يمتلكها الجبناء

– وماذا عن ضحيته؟

– جوهر مشروعه كان حاجته إلى الخلاص من مرابية ما كان أكثر ضحاياها، هو نفسه كان واحدا من هؤلاء الضحايا، فرأى أن ما كدسته من ثروة كان نتيجة استغلال حاجة محتاجين،

ومن هنا جاءت فكرته عن إعادة استخدام ما جمعته المرابية من مال لمساعدة الآخرين، كانت منهم واحدة من البغايا .

قال كمن يتحدث إلى نفسه:

- مساعدة البغي لا تكون إلا بالخلاص منها.

- هل تصدق أن من وقفت إلى جوارى فى محنة كانت فتاة ليل، على حين تهرب صديق من قرض تافه ليوم واحد.

- هذه سياسة البغايا، تشخص دور القديسة لتحقيق مأرب، ثم تكشف لك عن معدنها الحقيقى متى تحقق مأربها.

ولأن كل لبيب بالإشارة يفهم، فمن المؤكد أن إشارة كهذه لا تفوت رجل كخميس بكر:

- الخطأ فيمن يحقق للبغى مأربها دون ضمانات حقيقية.

- متى احترمت بغى قانونا؟

- سبق واتفقنا أن النجاح حكر على من يستطيع فرض قانونه على الآخر.

- القانون ليس عادلاً دائما.

تأهب فجأة للرحيل، فالحوار مع الثعلب قد يجره إلى ما لا يحمد عقباه، خصوصا وأن الثعالب لا تشتهى غير لحوم الدجاج، فما بالك أن كانت دجاجتنا هى بربرة الدجاج؟



(52)

جاء الربيع محملا- على غير العادة -بحرارة الصيف الحارقة، وقد أصبح حمل الست عنبة ظاهرا للعيون، فزادها انتفاخ بطنها إثارة، أو هكذا تبدت لعينا خميس بكر، إذ كانت نظراته كلما صادفها تعرى المرأة، فالصب حقا تفضحه عيونه، وباستثناء نظراته فإن الرجل لا يخرج عن وقاره حتى فى اختياره للكلمات، وإن حملت معنى غير المعنى ، كان يتحسب لردة فعلها أن تجاوزت يده التى تمتد لتعانق يدها حدود التحية، ولعله كان يحرص كل الحرص على أن تبقى ابتسامتها المحببة إلى قلبه هى كل ما يراه منها، فخسارته لابتسامتها لا تعوض، خاصة وهو يثق أن تلك الابتسامة هى أقصى ما تجود بها ناحيته، وقد سألته يوما:

-لماذا لا تتزوج حتى تجد من يعينك فلا تبقى وحيدا؟

-إن كانت الغاية من الزواج أن يعيننى أحد فالأولى أن آتي بخادمة؟ أما الزواج فشيىء آخر

- إن صح ذلك فلماذا لا تتزوج؟

-مرحى بعروس إن كانت تمت لك بصلة؟

قالت ضاحكة:

-قد تقبل بك أمى؟

-عادة فإن زوج الأم رحيم بأبناء زوجته على عكس زوجة الأب، فلا ترددى

.تواصلت ضحكتها، وقالت حاسمة ودون حياء:

-ولكنك لست ذا مال، فكيف تقبل بك أمى؟

فقال وهو يضغط على الكلمات:

-ولكنى املك مزايا آخرى؟ ففى استطاعتى منحها الحب والحنان والرغبة الدائمة فى الحياة؟

علقت باستهانة:

-ما أكثر باعة تلك السلع الراكدة فى هذا الزمان.

-هذه السلع كانت الثروة الحقيقية لنساء زمانى.

قالت بدلال:

-إذن قل للزمان ارجع يا زمان

وتساءل بعدها إن كان مقتنعا بالفعل بما يقول؟ شاء أو لم يشأ كان يرى الصواب فيما تقول، ترى إن كان حال بعلها كحاله أكانت تقبل بمضاجعته؟ ويل لمن خاصمتهم الملايين.



(53)

انتبه السكان ذات صباح على أصوات مطرقة تهز جدران البيت، فهرعوا لاستطلاع الأمر، كان مالك البيت قد جاء بعاملين، كان احدهما يضرب بمطرقته فى جدار الدور الأرضى، وكان الآخر يجمع ما خلفته المطرقة ويحمله إلى عربة المعلم النصف نقل، فخرج البعض يتساءلون، فقال المعلم لتوضيح الأمر:

-لا تجزعوا، ما نصنعه مجرد فتحة بعرض متر لتكون بابا لدكان

-هذا الحائط يحمل البيت والمساس به يهدد سلامته

غاب خميس بكر لأول مرة عن الحضور، فقال المعلم:

-أنا كمقاول أقول لا شيء مما نفعل يهدد صلابة القائم، ولمزيد من الحيطة فسوف نقوم بصب أعمدة مساندة.

وما هي إلا أيام حتى كان بالبيت دكان، وكانت واجهته تتجاوز المترين، ولكن ما من أعمدة مساندة جرى صبها، ثم شهدت الأيام التالية نشاطا مكثفا لعمال وحرفيين توافدوا إلى الدكان،

وكان الإنفاق يتم بسخاء، فقد استخدم الرخام والسيراميك فى تجليد الحوائط والأرض، ولم يعد أحد يجهل أن دكانا لبيع الدواجن الحية على وشك الافتتاح، خاصة وأن لافته من النيون زانت الواجهة، وكانت تحمل عنوانا للدكان، كما كانت تحمل اسم المسئول عن الإدارة،

إما العنوان فهو «البركة» وأما المسئول عن الإدارة فقد كان لاسمه قبول عند الناس، فمنذ الذى يجهل اسم الشيخ عبدالله؟



(54)

كان اسم عبدالله كافيًا لإثارة غضبه وحنقه، وبات يؤمن بنظرية غريمه من أن النساء هن أصل كل بلاء، وهل كان لعبدالله أن يحتل تلك المكانة عند مالك الدكان دون تزكية من عقيلته؟ وكان مما يزيد ضيقه تجاهل عبدالله لأمره، فلم يفكر حتى فى إخباره بالمشروع حتى طالع اسمه علي اللافتة، وكان هو الذى سأل:

-ألا يعوق دراستك إدارتك للمشروع؟

فقال ببساطة:

-ألا يعمل الطلاب وهم يدرسون؟

-وما علاقتك بالدواجن؟

-الإدارة لا تعنى إلمامك بعمليات الذبح والتنظيف، فلكل مهنة أربابها.

وشهد يوم الافتتاح حشدا من السكان، وبعض من معارف المعلم بخيت وعماله، وبالطبع فإن نجمة الافتتاح كانت الست عنبة، فقد ظهرت بعباءة جديدة تناسب تكور بطنها الذى قارب على الانفجار، وقد حرص سعيد إلى الظهور بجوار رفيقيه، رغم بعد المسافة بينهم، وكانت عيناه لا تكفان عن التنقل ما بين الشيخ عبدالله الذى كان يقف كالند إلى جوار المعلم بخيت لاستقبال المهنئين، وبين عنبة التى كانت تنطق ملامحها بالحيوية والنشاط،

وقد زادها انتفاخ بطنها جمالا وإثاره، وقد أحاطت بها أمها ونسوة من البيت، إلا يرتاب أحدهم فيما يملأ أحشاءها؟ أما محمد نبيل فقد تبدي في جلباب فضفاض وكأنه أعده للمناسبة، كما تهذبت لحيته على غير عادته، وكان يتولى بهمة توزيع المثلجات وقطع الشيكولاته على الحضور والمارة بغرض الدعاية، ولم لا؟! فمن المؤكد أن شيئا من الغنائم سيعود إليه، أليس من أتباع مدير المشروع؟ أو هو أخ له فى الإسلام؟ أما أنت فقد احتسباك على كفار قريش، وما دمت غير قادر على إتباع ملتهما فتوارى،

أو ارفع رايتك البيضاء ليتجلى بياضها للعيون، تماما كبياض هذا الجسد الذى تعرى لعيناك ذات يوم، ثم حرم عليك، فلن تراه ثانية إلا مستترا بعباءة، فقد أحلته صاحبته لمدير مشروعها نظير معسول الكلام، عنبة! ترى أينا كان أكثر فحولة؟

أم الفارق فى اللحية؟ أم فى استيعاب صاحبها لمبدأ ميكيافيللى الذى يتحدث عنه عم خميس؟ بالمناسبة، أين هو من هذا المشهد المثير؟ كيف يتخلف عن مناسبة نجمتها امرأة العزيز؟ وها هى تتجاهل حضورك رغم تلاقى العيون وكأنك جئت إلى الافتتاح طمعا فى زجاجة من المثلجات أو قطعة من الشيكولاته؟



(55)

ضاق بالحضور وتجاهلهم لوجوده، فغادر المكان، ولم يعد إلى البيت قبيل انتصاف الليل، وكأن ألما طارئا يقبض على صدره، ولا يريد مفارقته، فطرق باب شقة خميس، فاستقبله بترحاب، ولاحظ مضيفه وهو يقدم له الشاى أنه يحمل علبة من السجائر لأول مرة:

-لا أراك مهموما بدروسك والامتحانات على الأبواب؟

-كم عدد الذين يحملون المؤهلات؟ وكم منهم نال وظيفة؟

-هل هذا مبرر للتقاعس؟

قال بضجر:

-ألا يحق لى التخفف من أعبائى بالثرثرة بعيدا عنها؟

-أنا افعل ذلك لأنحى سيرة قنديل عن رأسى، ولكن غيابه لا يفارقها وكأنه عضو من أعضائها.

أشعل الشاب سيجارة بعد أخرى، وأحيانا يكتشف احتراق سيجارته بين أنامله دون المساس فيلترها، ثم باغت مضيفه:

-إلا يدهشك أن يرزق عقيم بمولود؟

ردد ببلاهة:

- الله قادر على كل شىء

-وبعيدا عن المعجزات؟

تنهد وراح يقول:

-من ناحية لا علم لنا بخبايا الطب وعالمه، وهو ما لا نستطيع معه الجزم أن كان الرجل عقيما؟ ومن ناحية أخرى فقد تكون المرأة تستشعر أن حياتها الزوجية مهددة إن لم يكن منها وريث؟

ثار سعيد غاضبا وهو يقول:

-ماذا تقصد؟ إن إشاعة مثل هذا التفسير كافٍ لإثارة غضب زوجها، وهو غبى وجاهل كما تعلم؟

بوغت خميس بردة فعله، فقال بحرص:

-أظن إننا فى حاجة إلى تعريف الجهل أولا.

-أنا أتكلم عن قانون البيئة الذي جاء منه الرجل؟ فالمساس بسمعة زوجه مسألة غير قابلة للتفاوض.

قال خميس غاضبا وبصوت مرتفع:

-لا تؤول تفسيرى بما لا يحتمل، تعرف كم أقدر المرأة، رغم خلافاتى مع زوجها، وسؤالك كيف تحمل امرأة ترى زوجها عقيما، هو قذف صريح للمحصنات.

اضطرب سعيد، وكاد يبكى وهو يقول:

-سامحنى، فلم أكن اعني مما قلت شيئا.

ربت الرجل على كتف الشاب فى حنان:

-هات ما عندك حتى تستريح، ولكن حذار من الثرثرة أمام الآخرين؟

سالت دمعة من عينى الفتى، وقال مؤكدا:

-لا صديق عداك فى هذه المدينة اهذى عنده بلا تحفظ، فرفيقاى لا شاغل لهما غير تدبير مؤامرة لطردى من البيت.

هز الرجل رأسه وكأنه يؤكد صدق شعوره، ثم قال محذرا:

-إياك أن تظهر ضعفا أمامهما، وأعرف لو أنك لم تكن ندا لهما لما تآمرا ضدك.

- وجودهما على رأس الدكان يمنحهما قوة إضافية.

- هذه قوة هشة يستطيع بخيت إزالتها بجرة قلم، أما قوتهما الحقيقية هى فى رضا عنبة عنهما ، أو عن أحدهما.

ما الذى يرمى إليه الثعلب؟ حذار من محاولاته إلى استدراجك لكشف المستور؟



(56)

سمح له الضابط بالجلوس على المقعد المقابل، وقد بادره على الفور:

-هل تحدث معك قنديل عن علاقته برجل أعمال؟ أو عن أوراق تمس موقفه القانونى؟

قال وهو ينتقى الكلمات بحذر:

-هو تحدث عن وثيقة تمس رجل ذو حيثية، دون ذكر تفاصيل؟

ضرب الضابط بقبضة يده على سطح المكتب غاضبا، وصاح بقوة:

-لماذا أخفيت عنى ذلك؟

اضطرب الرجل وقد توجس شرا قد يدفع بمحدثه إلى الزج به إلى حيث لا يرغب:

-لقد كان حديثه غامضا، فظننت أنه من قبيل مبالغاته ليضفى أهمية على شخصه، تلك كانت عاداته معى

قال الضابط محذرا:

-اسمع، لا أريد الإنصات إلى استنتاجاتك؟ أو ظنونك؟ أريدك أن تذكر فقط كل التفاصيل بشأن تلك الوثيقة؟ والرجل ذي الحيثية؟

-ليس أكثر مما ذكرت، قال أن لديه وثيقة تدين رجلا ذا مال وسلطان، أى وثيقة؟ أى رجل؟ كيف حصل عليها؟ هل لغيابه علاقة بالوثيقة أو بصاحبها؟ كلها أشباح عندى، وبالتالى فالحديث عن الأشباح يفضى إلى لا شىء، لذا تجاهلت القصة ونسيتها؟

لاحظ أن الضابط تنهد فيما يشبه الارتياح، وراح يعيد السؤال:

-إذن لم يطلعك على وثيقة؟

-نعم.

-ولا تعرف إن كانت هناك وثيقة بالفعل أو كانت ادعاء من جانبه؟

-نعم

-وهو لم يفصح عنهما، الوثيقة أو الرجل؟

-نعم

أعاد الضابط طرح ذات الأسئلة فتلقى ذات الإجابات، ثم اطرق الضابط برهة، فتساءل خميس:

-لقد فتشتم غرفته، فهل عثرتم على شىء؟

تجاهله الضابط وحافظ على صمته، فاستخرج خميس من جيبه منديلا ورقيا راح يجفف به قطرات العرق التى أفرزتها جبهته، وتساءل بقلق ما الذى ينتظره فى الساعات القادمة؟

واستعاد جأشه والضابط يشير بيده ناحية باب الخروج، فنهض غير مصدق ليغادر، ولكنه استوقفه ليسأله فجأة:

-إذن هو لم يخبرك بنيته على زيارة أحد؟
-هذا ما اسمعه منك لأول مرة، فهل فعل ذلك؟
تراجع الضابط عما استشعر أنها زلة لسان، وقال دون اهتمام:
-فقط أسألك؟

وعندما استدار خميس لينصرف، أستوقفه الضابط وتحدث إليه بلغة أقرب إلى لغة الأصدقاء:

- أوافقك القول إن صديقك هذا ما هو إلا شخص مدع ليبدو أمام من لا يعرفه وكأنه ذو حيثية.
لم يصدق أنه تركه يغادر فى سلام.



(57)

استيقظ فزعا على طرقات تتلاحق على باب شقته وكأن الغاية اقتحام مخدعه، هل جاء زوار الفجر؟ ألم يسمح له الضابط بالمغادرة؟ نهض منتفضا فى اتجاه الباب، أين سجائره ونقوده؟ قد لا يمهلونه الوقت لاصطحابهما، وهو لن يحتمل البقاء دونهما، كانت الطرقات تتواصل بعنف فوق الباب، فهرع ناحيته وسارع بفتحه، فهاله ما رأى؟ كانت الردهة التى تفصل بين الشقتين تكتظ بالبشر، وكانت معركة بالأيدي تدور رحاها، لم يتبين أبطالها على الفور، وكان أول من عرفه الشيخ عبدالله، ثم محمد نبيل، أما الضحية التى كان صراخها يقلق صمت ما قبيل الفجر، فهو سعيد الدسوقى، أما المتزاحمون بين المتعاركين فهم من السكان الجدد، والذى لا يعرف لهم أسماء، استعاد جأشه ، إذ اطمأن أنهم ليسوا من زوار الفجر، وبسرعة لا تتناسب وسنه الكبيرة اندفع لإنقاذ سعيد وهو يصيح:

-ماذا يحدث؟

طالته لكمة خاطئة، وقد آلامته بالفعل، ولكنه لم يتراجع عن محاولاته للوقوف كحائط صد بين القبضات الطائرة ومرماها، وكانت لوقفته أثرها البالغ، إذ شجعت رجلا من الواقفين بالالتحام خلفه، حتى كفت أيدى المهاجمين عن الشاب، ولكن صياحهما تواصل :

-لن نسمح له بمشاركتنا الغرفة بعد الساعة؟
ويدوره كان الراكع لا يكف عن الصراخ:
-ليست هذه غرفتكما، ولا يجرؤ أحد على إخراجي منها؟
كادت المعركة أن تتجدد، ولكن الصياح لم يتوقف:
-لن نسمح له بالدخول لغير حمل أمتعته، وهذا خير له.
تساءل خميس:
-لماذا؟
جاءه ردا مبهما:
-لا حياة لهذا السافل بيننا
تبين لخميس أن هناك زحام آخر على السلم المتصل بالردهة، فأبصر نسوة من السكان يتابعن المعركة، ترى هل بينهن عنبة؟ ألا تعلم أنها لب الصراع؟ عاد يسأل:
-ما الذى حدث؟
كان الود مفقودا بالطبع بين الشاب والمهاجمين، فأشار عبدالله إلى سعيد:
-سله؟ فهو لا يحمل غير الحقد والضغينة والاتهامات الرخيصة لأسياده
لا يملك سعيد غير الصراخ:
-لا سيادة لأحد عندى؟ وانأ هنا قبل مجيئك؟ وأجرتى كانت تصل لقنديل قبلكما؟

صاح محمد نبيل:

-لقد رحل قنديل بلا عودة، فاذهب إلى حيث يكون للإقامة معه؟ فالطيور على شاكلتها تقع؟

واستطرد عبدالله:

-قنديل ليس صاحب البيت؟ وكانت إقامته عرفيا، وقد استعاد المالك شقته، وقبل إقامتنا نظير أجرة جديدة.

لم يكن المالك بين الحضور، فجاء صوت زوجه من اعلي السلم، ولأول مرة يكتشف خميس وجودها:

-المالك لم يطرد أحدا، فإن تعايشوا معا فهذا شأنهم.

كانت الكدمات تطفو على وجه سعيد وهو يواصل صراخه وكأنه يرد على زوجة المالك:

-بل هذا شأنى وحدى؟ ولن أغادر إلا قاتلا أو مقتولا.

وكأنه سكب كيروسين فوق النار المتأججة، فتجددت المعركة، أو عاود المهاجمون توجيه لكماتهما القوية للضحية، ومرة أخرى نجح خميس بكر بمعاونة المتجمهرين فى فض الاشتباك المتجدد، وكان أكثر ما يغضبه أن الضحية كان يتلقى الضربات بصراخ ما أشبهه بصراخ طفل، ولم يحاول توجيه لكمة واحدة لأى الخصمين ولو على سبيل الدفاع عن النفس.



(58)

أسفرت وساطة خميس بكر ورجل من السكان الجدد عن اتفاق ارتضاه المتعاركون، وقد عده سعيد اتفاقا مخزيا، ولكن قوة خصميه أجبرته على قبوله، كان الاتفاق ينص على انتقال عبدالله ورفيقه إلى الغرفة التى كان يقطنها قنديل وقد خلت برحيله، على أن يبقى سعيد فى الغرفة الأخرى وحده، ولا يحق له استجلاب من يشاركه سكنها، وهو ما يفرض عليه تحمل نصف الأجرة الجديدة بالإضافة إلى حصته من فاتورة استهلاك الكهرباء، والمياه، وهذا الاتفاق سارى حتى اليوم الأخير من امتحانات البكالوريوس التى كان موعدها يقترب، بعدها عليه المغادرة دون إخطار؟ أما البند الغامض فى هذا الاتفاق- وقد حرص المتعاركون على غموضه -فإن على سعيد أن يغلق فمه الكريه فيما يتفوه به من تنابذ وتلميحات، أى تنابذ؟ وأية تلميحات؟ ما من مجيب؟ ولعل خميس بكر -على عكس الشاهد الثانى - لم يكن فى حاجة إلى أحجية لفك طلاسم غموض بند كهذا، أما مالك البيت فلم يعر شجار سكان الشقة -عندما علم بأمره -اهتماما، بل عده تنافسا لا يعنيه، ولكن الأيام التالية حملت إلى أذنيه متنابزات جرى الزج فيها باسم زوجه، فثارت ثائرته وراح يتحرى أمرها بغضب لم يستطع مداراته، رغم أن ما يصله كان مشوشا لا يقين بشأنه،

هل غازل هذا التلميذ التافه زوجه؟ وهل زارها في غيابه هذا الشيخ الذى زكته عنده ليقبل بشراكته فى الدكان؟ لقد قبل بشراكته عرفيا، تماما كإقامته ورفيقيه فى الشقة، فلا سند لهم من قانون، فتجربته فى الحياة علمته ألا يمنح ورقة مكتوبة لعملائه، كلمته هى القانون، هكذا يزعم؟ حتى يعطى لنفسه حق التراجع متى شاء، منذ الذى لا يقبل بقانونه؟ إن كان الشيخ قد زار امرأته طلبا لوساطتها فلا غبار لفعلته؟ وفض شراكتهما هين متى استنفذ الغاية منه؟ أما هذا الطفل الباكي فليعد إلى حضن جدته حتى تحسن تربيته؟ فالمساس بزوجه ولو بغمزه من عين تستوجب محو اسمه من سجلات الأحياء، فعنبة اليوم ليست زوجه فحسب، بل منحها وريثه- الذى طال انتظاره -حق الأمومة والتغاضي عن هفواتها الطائشة، هل أغواها شبابه ووسامة ملامحه فتناست سيدها ورب مصاغها؟ لم يجرؤ على محاسبتها، كان يتحسب لردة فعلها، خاصة واكتمال حملها جعل منها امرأة آخرى؟ تثور لتوافه الأمور وأيسرها، كأن الطفل لا يعنيها أن لحق به ضرر؟ فهى تتمتع بالأمومة من قبل زواجهما؟ وضاق بوساوسه، فأستدعى عبدالله:

-لا أريد رؤية هذا الولد فى بيتى؟

أدرك عبدالله أن سعيد هو المعنى بقوله، فأبلغه بما عقده من اتفاق برعاية عم خميس، فقال غاضبا:

-من هذا الخميس حتى يعقد اتفاقا يستوجب احترامه؟ هل أصبح هو المالك؟

-ليس خميس فحسب، بل هو موسم الامتحانات؟

-كيف ينال النجاح من أساء إلى المعلم بخيت؟

ثم أضاف المعلم:

-لا تشغل بالك بأمر هذا الخميس، فهو لا يملك إلا الصراخ وكتابة الشكاوى، انه كمؤذن مالطة، لن يجد مصليا يدخل مسجده؟

تفكر عبدالله للحظة:

- طرده اليوم قد يثير لغوا، ووجوده تحت أعيننا يجعل السيطرة على حركته ممكنة.



(59)

جاءت إلى البيت اليوم سيارتا إسعاف، وصلت الأولى بعد صلاة الفجر لتحمل الست عنبة إلى المستشفى لتضع مولودًا، وخلفها زوجها بسيارته النصف نقل وبصحبته حماته، أما السيارة الثانية فقد وصلت قبيل انتصاف الليل بساعة، لتحمل سعيد الذى أصيب بإغماءة وجروح لا يعلم أحد مدى خطورتها؟ فقد استخدم احد خصميه فى شجاره معه آلة أشبه بموسى الحلاقة«قطر»، وعندما أفاق من غيبوبته كان خميس إلى جواره:

-الجرح ليس عميقا واكتفى الطبيب بتطهيره وحياكته بقليل من الغرز؟

-أين؟

-فى أعلى الفخذ الأيسر؟ أما محمد نبيل فقد اختفى؟

-وماذا عن عبدالله؟

-لم يستدعه أحد، فالجميع قالوا إن الشجار كان محصورا بينك وبين من طعنك؟

تحسس مكان الضمادة بألم:

-من طعننى لم يكن إلا أداة للفاعل الحقيقى؟

-لك أن تذكر ذلك فى محضر المستشفى؟ فقد أعد الطبيب الذى استقبلك تقريرا بالحالة التى جئت بها، وبهذا التقرير يمكنك القصاص من الاثنين؟

قال كمن يهذى:

- من يستحق القصاص هو أصل البلاء، وليس أداته؟

-من تقصد؟

لم يحر جوابا، كان العنبر يحوى عددا من الأسرة، وقد استلفت نظر خميس ممرضة شابة تمر بين تلك الأسرة، وتتحدث إلى المرضى، أو تنبههم إلى مواعيد تناولهم للأدوية التى عليهم تناولها فى مواعيدها، وكانت ملاحظته الأساسية أنها تتحدث بابتسامة مثيرة لبعض المرضى وبملامح صارمة للبعض الآخر، وعندما وصلت إلى فراش سعيد ألقت نظرة سريعة على ملفه المعلق على عامود فراشه، وقالت كلمتها على عجل وهى تتجه ناحية الفراش التالى، فاستوقفها خميس بكر:

-هل يسمح له بتناول العصائر أيتها الطبيبة؟

أطربتها كلمته، أو هذا ما اعتقد:

- لا مانع.

فقام على الفور بإخراج علبة كرتونية من لفافة كانت إلى جواره ومد يده بها ناحيتها :

– إذن تقبلى هذه من والدك.

رغم المفاجأة تقبلتها ببساطة ومضت، فشعر بالرضا، وظلت عيناه تتابعها حتى غادرت العنبر، وحين عاد إلى سعيد انتبه إلى أن الشاب كان يرمقه، فعلق:

– لا تؤاخذنى، فإن بى ضعفا أمام بعض الناس.

– تقصد النساء؟

– الجميلات منهن فحسب، فأنا أتفق مع شاعر الهند العظيم طاغور عندما قال لا تضرب المرأة حتى بالزهور، وإن كانت أكثر النساء لا يجدى معهن غير ما قال به أينشتين؟

– وماذا قال؟

– نصح الرجال بألا يلتقى أحدهم بامرأة إلا وبيده عصا.

– أظن أنه كان يقصد تلك الممرضة، ولو قدر لطاغور هذا رؤيتها ما قال قولته

– نظرة عجوز مثلى للمرأة تختلف عن نظرة غر حديث عهد بالنساء مثلك، ففى بداية العمر نرى كل ما يتعلق بالمرأة مثير وجميل، بما فى ذلك ملابسها ورائحتها، فإذا ما وصلنا إلى ما يسمونه خريف العمر انتقلت الإثارة إلى الروح.

ساد الصمت برهة، أذ استشعر خميس أن الحالة الصحبة للشاب لا تحتمل مثل هذه الأحاديث، فعاد يقول:

-يجب أن تخطر جدتك بما أصابك؟

-لا لن أفعل؟ يجب ألا تعلم جدتى بما يصيبنى بعيدا عنها؟ وإلا انقلبت صورتى عندها مائة وثمانين درجة؟

***

غادر سعيد المستشفى بعد ثلاثة ايام، ولم يكن قد تعافى تماما، فعاد إلى البيت بصحبة خميس، ولكنه لم يستطع الوصول إلى غرفته، اذ اكتشف أن باب الشقة الخارجى قد جرى تغيير كالونه، فثار رغم آلامه، وهبط مسرعا تاركا مرافقه، حتى وصل إلى الدكان الذى كان مزدحما بالزبائن، فما أن وقعت عيناه على عبدالله حتى صاح صارخا:

-كيف تجرؤ على تغيير كالون الباب؟

لقاه عبدالله بجمود، وأشار إلى كومة كبيرة من الملابس والكتب بركن من الدكان:

-هذا ما لك بالغرفة، فاحمله وارحل؟

وكان خميس قد لحق به، فأمسك بسعيد تحسبا لمعركة كان عبدالله والعاملون بالدكان مهيئين لها، فخاطب عبدالله

-وماذا عن الاتفاق؟

-لا اتفاق مع أفاق؟

-وماذا عن مستقبله؟

-هو من جنى على نفسه؟

حمل سعيد الكومة الكبيرة بمعاونة خميس، وصعدا سلالم البيت، واقتحما باب الشقة بعد أن كسرا كالون الباب، وعلى أثر ذلك صعد عبدالله ونفر من العاملين بمحل الدواجن، وقد اشتبكوا فى معركة طويلة مع المقتحمين.



(60)

كان لرواج مشروع الدواجن صدى فى العزبة، والعزب المجاورة، وقد عزى كثيرون النجاح إلى الشيخ عبدالله وحسن إدارته، فقد أحسن الشيخ اختيار معاونيه، كما سن تقليدا أصبح مألوفا للناس فى السنوات الأخيرة، فما أن يحين موعدا لصلاة حتى تتوقف عمليات البيع والذبح، ويجرى سد مدخل الدكان بساتر من قماش، وقد علقت به لافته تعلن عن غلق الدكان وقت الصلاة، وكذلك استجلب الشيخ عاملا لحمل طلبات الزبائن إلى مقارهم دون تحملهم عبء الحضور للشراء، فمكالمة تليفونية تكفى، ورغم هذا الرواج وما يدره من أرباح يعود أكثره على المالك وزوجه، باعتبارهما الشريكين الأكبر، فقد بوغت الشيخ عبدالله وفريقه بفرمان يصدره المعلم بفض الشراكة وغلق الدكان، وعبثا حاول الشيخ إثناء المعلم عن رد قراره:

-لا أريد لابني أن يكون بائع فراخ؟

كانت زوجه قد جاءت بوريثه منذ أسابيع قليلة، وقد شهد الناس بسخائه يوم أن ذبح الذبائح لعقيقته، قال عبدالله:

-ولكن الطفل مازال فى قماطه؟

-هذا شأنى؟

-وأين يذهب هؤلاء العمال؟

-هذا شأنهم؟

اضطر عبدالله إلى القول:

-لا شأن لنا باستضافة عم خميس لسعيد فى مسكنه؟

-لست عاجزا عن طردهما معا؟ فلا يحق لساكن التأجير من الباطن لساكن آخر؟ هذا ما قاله المحامى؟

قال عبدالله متحديا:

-ولكن طردنا من الدكان غير قانونى؟

أجابه بثقة:

-اطلعني على ما تحملون من أوراق؟

-شهادة الناس

قال باستهانة:

-هذه هى المرة الأولى التى اسمع فيها أن للناس شهادة يعتد بها؟

فى اليوم التالى شهد السكان مشاجرة استخدمت فيها الزجاجات الفارغة والسنج بين العاملين بالدكان ورجال المعلم بخيت، ورغم أن عبدالله ورفاقه أبلوا بلاء حسنا أمام خصومهم، فقد انتهى الأمر إلى إغلاق الدكان.



(61)

اتهم شقيق قنديل الشرطة بالتقاعس فى البحث عن أخيه الذى اختفى منذ قرابة العام، كما طال الاتهام جار أخيه المدعو خميس بكر، إذ عده مفتاح اللغز فى القضية، وقد نشرت إحدى الصحف المستقلة تصريحات الشقيق، وفى المقهى كان أمين زكى ينقل إلى نديمه نص التصريحات، فعلق خميس بحرية تامة:

-لست مفتاح اللغز، بل لا يوجد لغز يحتاج إلى ذكاء شرلوك هولمز، أو عبقرية أجاثا كريستى؟ فهناك وثيقة إدانة لرجل ذي حيثية كانت فى يد الغائب، فساوم صاحبها مقابل تسليمها إليه، فما الذى حدث بعدها؟ احتمالان؟ الأول أن تكون عملية المساومة قد تمت مقابل جائزة ما، فعلم بأمرها من مدوه بالوثيقة، فقاموا بالانتقام منه جزاء خيانته، والاحتمال الآخر أن تكون عملية المساومة قد فشلت، فقام من تمسه الوثيقة باستعادتها بشكل ما؟

-إذن احد الفريقين وراء اختفاء الشاب؟

-لا يوجد احتمال ثالث؟

ثم أضاف مواصلا :

-أما اللغز الحقيقى فهو فى حرص البعض أن يبقى اختفاء الغائب لغزا؟
-كيف؟
-استمرارا للغز لغز، هو اللغز نفسه، هل تفهمنى؟!

صمت أمين لبرهة، ثم تساءل:
-لماذا لا تخبر الشرطة بهذا الاستنتاج؟
قاطعه بقلق:
-كأنك لم تع ما قلت؟
-كيف؟
- الشرطة لا يغيب عنها هذا.
ثم أضاف موضحا:
-فى الحجز حدثنى احدهم عن نظرية«كبر دماغك» وهى تصلح لتفسير هذا اللغز، فالغائب مواطن من الدرجة الثانية، بينما من تمسه الوثيقة من ذوى الحيثية، وحتي ظهور دليل يكذب نظرية« كبر دماغك»، لعلك تذكر أن عشرة أفراد فى إحدى قرى الصعيد جرى بتر أعضاءهم التناسلية، ووفقا لنظرية «كبر دماغك» نسبوا الجريمة لمختل عقليا، وقبلها صنعوا وليمة لأسماك البحر من جثث ألف مواطن، فهل عرفنا الشيف؟

تنهد أمين وراح يقول:

-ظهور الشاب فجأة كاف لقلب السحر علي الساحر؟

-مرة أخرى أنت لم تع مما قلت شيئا؟

-كيف؟

-لن يظهر غائب؟

-قد تظهر جثته؟

-لقد انتظرتها مثلك، واليوم أقول مؤكدا لن يظهر غائب، ولن تظهر جثة؟ ما دامت نظرية «كبر دماغك مازالت» قائمة

.



(62)

وجد سعيد فى انتظاره، كان الرجل قد استضاف الشاب بشقته حتى يتسنى له أداء امتحاناته، وقد جمع متاعه فى حقيبة كبيرة استعدادًا للرحيل:

-كنت أتهيأ للمغادرة مع أول ضوء للنهار؟ ولكننى سوف ابقى حتى اطمئن عليك؟ فقد جاء جندى لاستدعائك؟

انقبض قلبه فور سماعه بالخبر، فتظاهر بالتماسك:

-لا تقلق؟ وعد إلى جدتك بسلام، فقد سار استدعائى مألوفا حتى تغلق خانة قنديل؟

-قد لا تغلق إلى الأبد؟

-لا شىء يدوم إلى الأبد؟ وقد يجدون فى موتى فائدة لسد خاناتهم؟

ثم أضاف ليدارى اضطرابه:

-دعنا نحتفل بوداعك؟ هل تناولت عشاءك؟

-لقد طهوت صينية من البطاطس مع دجاجة كبيرة الحجم، لم ابتاع دجاجتى من أهل البركة؟ فقد تم تصفية الدكان؟

وتلا قول الله :وتلك الأيام نداولها بين الناس.

فعلق خميس:

-هكذا تنتهى صفقات الانتهازيين؟

فقال سعيد بحذر:

-أظن أن للمرأة دورًا فى قرار المعلم بتصفية المشروع بهذه السرعة العجيبة؟

رغم أن أفكاره كانت فى اتجاه آخر وجد نفسه يقول:

-لعل المعلم رغب لطفله فى حياة لا يعكرها غمز المتغامزين؟ فقرر استبعاد الجميع، وأظن أن دورى آت، فقد جند محاميه لمطاردتى

-رحيلى غدا كاف لوقف كل حججه القانونية؟

-هذا أن كانت كل أوراقه تستند إلى القانون؟ أكان طردك من غرفتك يعود إلى القانون؟ أم لوسائل الالتواء؟

-لقد استعان ببلطجي؟

-ولن يكف عن استخدام كل وسيلة تحقق غايته؟ دعنى أعيرك كتابا لمكيافيللى عنوانه الأمير، يمكنك أن تقرأه فى إجازتك، فنتيجة البكالوريوس لن تظهر غدا.



(63)

استنبط البعض أن المارد قد خرج من قمقمه، فنجاحه فى طرد سعيد من غرفته، وإغلاقه للدكان بعدها بأيام رغم ما حققه من رواج، استتبعهما صدام مع زوجه، فما كادت أم طفله تستعيد عافيتها، حتى أمرها بالمكوث فى البيت لا تغادره، إما عن لوازم بيتها، وطلباتها الشخصية، فقد وعد بتخصيص من يقوم عليها، أو يوفرها بنفسه، وقد اضطرت عنبة إلى الانصياع لرغبته لوقف جماحه الذى ثار فجأة، وكانت تستشعر بالتأكيد أن رذاذا تطاير فوصل إلى أذنيه، وبالتالى فتحديه هذه الأيام لا يحمد عقباه، فكان رجاؤها أن تستضيف أمها للإقامة عندها ، فهي خير من يقوم على خدمتها، وجاءت إقامة الأم لتكتشف – بحكم تجربتها- أن مارد ابنتها مصنوع من حلوى؟ وإن ما تراه زئيرا ما هو إلا أنينًا؟! فرأت فى الخنوع مذلة، وخير وسيلة للدفاع هى فى الهجوم؟ وكان لصوت المرأتين العالى فى أى خلاف ينشأ بين ابنتها وزوجها حاسما فى إسكاته وتراجعه، كان يكره أن يصل ما بينه وبين زوجه إلى السكان، فهموم بيته يجب أن تبقى داخل جدرانه سرا من الأسرار، خاصة وإن بعض غسيلهما طالته الأوساخ، وقد خارت قوة المارد عندما رمت عنبة بقنبلة فى وجهه

:

- أنا لم أعد أروق لك فلننفصل؟ هذه شقتى؟ وهذا طفلى؟

قال مؤكدا:

-إنا من وهبك الشقة والطفل؟

فبادرته الأم مؤكدة:

-ومن ذا الذى يزعم غير ذلك؟ من الذى يعطى أذنيه للواشين؟ لن يهنأ الحاسدون والحاقدون حتى يضيع مالك وجهدك هباء؟

قال غاضبا:

-الويل لكل من يسىء إلى ابنى؟

فصاحت عنبة بحماسة:

-دع الأمر لى؟ فإن لم نلقاهم بعبوس فلن يرتدعوا؟

وأضافت الأم:

-وقد يتطلب الأمر ضربهم؟ فلا تأخذنا بهم رحمة؟ فالتردد ضعف، والضعف هزيمة لن نقبل بها.



(64)

كان يقرأ عندما جاءه صوت طرق على الباب، فنهض ليفتحه متسائلا من طارق الفجر غير الشرطة؟ وصدق حدسه، فقد اقتحمت الشقة- بمجرد فتح بابها - قوة منهم وإن كانوا بملابس مدنية، كيف نسى أمر الاستدعاء الذى أخبره به سعيد؟ الم يكن هو كل شاغله حتى ودع الفتى؟

-من أنتم؟

قام الأخير بإغلاق باب الشقة من الداخل، وقام كبيرهم بإصدار أوامره للرجال بتفتيش المكان:

-هل لديكم أمر بالتفتيش؟

حتى غرفة نومه لم تسلم من عبثهم؟

-عم تبحثون؟ قد أرشدكم إليه دون حاجة إلى هذه الفوضى التى تصنعونها؟

فأجابه كبيرهم ببرود:

-عندما نفشل فيما نبحث عنه سنطلب عونك؟

تركهم يعبثون مرغمًا، وراح يتحسس سجائره ونقوده تحسبا لاعتقاله، انتهى العبث الذى لم يسفر عن شىء، فسأله الكبير

-أين أوراقك؟

-أية أوراق؟

-أوراقك الخاصة؟ عقد الشقة؟ مذكرات؟ شهاداتك؟ وما شابه؟

-لا عقد للشقة، لا مذكرات؟ أما شهادة الميلاد والمؤهل ففى حوزة جهة العمل لم أستعيدهما؟

هز الضابط رأسه موافقا، ثم أمره بهدوء.

-فلترافقنا؟

-لا أحمل كفايتى من السجائر؟ فهل تسمح لى بشراء المزيد؟

-لن تحتاج أكثر مما تحمل؟ فلن يستغرق الأمر أكثر من تناول الشاى؟ أيصدقه؟ سمح له الضابط بغلق باب شقته بإحكام، وهبط بصحبتهم سلالم البيت المظلمة، إذا به يصادف عنبة لترى حجم القوة التى جاءت من أجله؟

لست ذا مال يا عنبة ، لكني وفقًا لنظرية «كبر دماغك» لا أقل منزلة من كارلوس الثعلب ، وأسامة بن لادن ، وستبقى النظرية قائمة وصالحة حتى يظهر في بلادنا مليون راسكولينكوف؟!



(65)

فكر وهو يغادر مبنى مباحث امن الدولة، أن يحمل لافتة تندد بتجاوزات الأمن، ويرفعها من فوق سلالم نقابة الصحفيين، ولكنه عدل عن الفكرة، إذ تساءل ما جدوى فعلته حيال من كانت ديمقراطيتهم هى حرية السماح لمنتقديهم بالصراخ فى الخلاء؟ فاكتفى بإضافة أيام جديدة إلى أيامه البائسة.

وما كاد يلقى بجسده المجهد على الفراش حتى اضطر إلى مغادرته على إثر طرق متواصل على الباب، ففوجئ بالشيخ عبدالله وبرفقته رفيقه محمد نبيل، وقبل أن يتفوه بكلمة بادره الشيخ عبدالله:

- حمدًا لله على سلامتك.

ثم أضاف:

-علمنا بخبر اعتقالك من الأخ سعيد، فتوجهنا إلى قسم الشرابية لزيارتك والتضامن مع قضيتك، فللجار على الجار حقوق وواجبات علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم فى القسم أنكروا وجودك؟

هاله ما سمع، ورغم ارتيابه فى أمر الزيارة، أضطر إلى الترحيب بهما إلى حد دعوتهما إلى الدخول:

-هذا صحيح، فقد كنت ضيفًا هذه المرة على مباحث أمن الدولة؟

وراح يقص- بترحاب - ذكرى أيامه المحزنة، وللأمانة فقد كان ضيفاه ينصتان باهتمام إلى روايته، وقد أبديا تعاطفا صادقا مع آلامه، وسأله عبدالله:

- كيف تفسر اختفاء قنديل إذن؟

وأوضح محمد نبيل:

- لعل ما زعمه أخوه ونشرته الصحف على لسانه قد وصل إليك؟

أدلى بدلوه فى المسألة، فأمنا على قوله، وإذا بالشيخ عبدالله يقول:

- لو احتجت إلى محام فعندنا أصدقاء متطوعون دون أتعاب؟

وقبل أن يتركاه ليستريح، رمى عبدالله بمفاجأته:

- لسنا ضد استضافتك للأخ سعيد، بل أهلا به إن رغب فى العودة إلى شقتنا، ولكن ما يشيعه عن طفل مالك البيت مشين، وقد يعرضه لانتقام المالك؟

وقبل أن يجيبه، واصل محدثه:

- نحن فى خلاف مع المالك بسبب إغلاقه للمحل الذى كان مورد رزق لنا، ولكن رمى المحصنات بالزنا من الكبائر كما تعلم؟

الآن اتضح سبب زيارتهما الميمونة، ووعد بالحديث إلى الفتى متى جاء لزيارته، وبعد مغادرتهما استشعر نشاطا طارئا، فاستحم وغادر قاصدا مقهاه، فصادف امرأة تحمل سلة كبيرة ممتلئة بصنوف البقالة فى مدخل البيت، فعرفها على الفور، إنها والدة عنبة، فوجد نفسه يتطوع ليحمل عنها سلتها، تماما كما حملها عن ابنتها ذات يوم وراح يحدثها عن موقف مشابه للجاحظ مع موقفه، لم تكن عنبة تعرف من يكون هذا الجاحظ، ومن المؤكد أن أمها لا تقل جهلا بشأنه عنها؟ وبالتالى فإعادة ذات الرواية على مسمع الأم لا معنى له،

ولكن إصراره على حمل أثقالها نيابة عنها أطربها، فما أشبهها بابنتها؟ هذه هى صورة عنبة عندما ستبلغ الخمسين؟ ترى هل يكون يومها على قيد الحياة؟ أراد للمرأة أن تسبقه فى الصعود للسلالم ليتأمل مؤخرتها

ولكنها دعته ليسبقها فسبقها كارها،،فلما وصل بحمله إلى باب شقة ابنتها، رد إليها سلتها، وقال وهو يعاود الهبوط:

- مبارك المولود.

فشكرته دون دعوته إلى الدخول، كم كان يتمنى رؤية عنبة ووريث المعلم؟ لكنه غادرها وقد خاب أمله، لماذا تطوع وحمل عنها حملها ؟



(66)

لم يغادر المقهى حتى بعد أن غادرها آخر زبون، وكان العامل قد بدأ فى حمل المقاعد والمناضد وراح يضعها فوق بعضها البعض فى أحد أركان المقهى، كان يأمل أن تظهر بائعة المناديل مع آخر ثانية، فاضطر - آسفا- إلى المغادرة، وسأل العامل وهو يمنحه أجرته:

-لم تظهر بائعة المناديل اليوم؟

فقال العامل ببساطة:

-هى تبيت أحيانا وطفلها فى المقهى إذا ما تأخر بهما الوقت، فهى تسكن فى مدينة السلام؟

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية صباحا، فراح يتجول ببطء على مقربة من المقهى، كانت حاجته إليها تجبره على التعلق بالأمل فى ظهورها فجأة، وتعلقت عيناه بامرأة تقف بالقرب من محطة لسيارات السرفيس، كانت وقفتها فى تلك الساعة المتأخرة إعلانا عن مهنتها، فاقترب منها بحرص، كانت أكثر جمالا من بائعة المناديل، وكذلك كانت ملابسها، فراح يرنو إليها باحثا عن جملة يبدأ بها المغازلة، وكأنه حديث عهد بصيد الساقطات، وداهمه اضطراب

رغم أن الميدان كان شبه خال من البشر، وقبل أن يتفوه بجملته تحركت المرأة بعيدا بضع خطوات على إثر وقوف سيارة خاصة بالقرب منها، وعندما انتبه كانت المرأة قد دلفت إلى داخلها، وقبل أن يفيق كانت السيارة تنطلق، فشعر بضيق ممزوجا بغضب، ولكنه لم يستسلم، واثقًا أن بالبحر أسماكا أكثر، فعاود تجواله حتى تبين أنه يسبح فى مستنقع بلا أسماك، فاتجه مرتدا ناحية مقهاه التى كانت أنوارها قد انطفأت ، وما أن عبر الطريق حتى غشاه أمل، فقد لمح بائعة المناديل وهى تحمل طفلها النائم فى طريقها إلى مأواها، فسارع من خطاه حتى اعترضها، وقد فوجئت به:

-لنذهب حيث شئت؟

تنهدت وهى تقرأ بخبرتها شهوته الطارئة، وكالتاجر المحنك حين يستشعر حاجة المشترى إلى بضاعته:

-لنؤجل ذلك إلى الغد؟ فأنا مجهدة الساعة؟

-حاجتى اليوم لا تحتمل الانتظار إلى الغد؟

-قد لا يناسبك سعر اليوم؟

-ليكن، ولكن المغالاة قد تجبرنى على الانصراف؟

كانت أنفاسها تتلاحق من إجهاد حملها للطفل، فقالت حاسمة:

-مائة جنيه؟

-هذا أجر نجمة سينمائية.

واصلت وهى تهم بالتحرك إلى ناحية المقهى:

-والدفع مقدما؟ هذا غير تحملك لأجرة التاكسى؟ وأجرة صاحبة المسكن؟

أي ليلة مشينة تلك؟ فبالإضافة إلى ارتفاع قيمة الفاتورة التى تحملها مرغمًا، خذله ماؤه الذى قذفه بسرعة أزعجته ؟ أين ذهبت فحولة راسبوتين التي كان يتغنى بها؟ أي وجه سيلقى به المرأة بعد اليوم اللعنة.



(67)

لم يكن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر قد تبين للناس، عندما استيقظوا مذعورين علي صوت انفجار هز العزبة كلها، قبل صوت الانفجار بدقائق معدودة سمع بعضهم صرخات استغاثة ابتلعها دوى الانفجار المخيف، فهرع كثيرون لاستطلاع الأمر، حتي امتلأت الطرق والحارات بزحام أشبه بيوم الحشد العظيم، واسترشد الناس بغبار كثيف غطى المنطقة التى تحيط ببيت السقا مصدر الانفجار، ثم عادت أصوات الصراخ والاستغاثات لتخبرهم بالكارثة التى لحقت بالبيت، فتعالت أصوات الناس:

-انهار بيت السقا؟

-ليتصل أحد بالشرطة؟

-ابتعدوا عن الموقع، فمازال الانهيار يتواصل؟ وقد يمتد إلى البيوت المجاورة؟

-حذار، لابد من قطع التيار الكهربائى عن المنطقة؟

-أين كشك الكهرباء؟

بدا الناس كالأشباح وسط الغبار الكثيف، وشيئا فشيئا ومع خيوط النور رأت العيون جبلا من الأنقاض قد نصب مكان البيت، كما تحطمت السيارات التى كانت نائمة إلى جواره،

وقد اعتلى البعض أسطحها للوصول إلى قمة الجبل، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، إذ كانت أصوات الصراخ والاستغاثات تتواصل أحيانا وتختفى أحيانا، ولكن نقص الخبرة وشدة الزحام، فضلا على غياب المعدات اللازمة لرفع شيء من الأنقاض، حال دون ذلك، وبدا جهد البعض بلا قيمة، كما اختلفوا فى تحديد مصدر واضح لما يصلهم من أصوات عويل أو استغاثات، إذ بدت كل الأصوات وكأنها آتية من جب مجهول، ثم ظهرت الشرطة مع بزوغ النهار، وقد أعقبت ظهورها وصول سيارات الإنقاذ وعربات الإسعاف، وقد بدأ العمل يأخذ شكلا مغايرا عما كان، إذ جرى أحاطت موقع البيت والمنطقة المحيطة به بالمتاريس الحديدية، بعد إخلائه من المتزاحمين، ومع انتصاف النهار واتضاح حجم الكارثة للشرطة، شهد الموقع توافدا ملحوظا من رجال الحكومة، خاصة أن مراسلي الصحف وكاميرات القنوات التليفزيونية كانت قد تسابقت إلى المكان، وظهر عضوا مجلس الشعب الممثلان للمنطقة بعد طول غياب، وكذلك أعضاء عن المجالس المحلية وقيادات أمنية وشعبية لم يألف أبناء العزبة رؤيتهم فى غير مواسم الانتخابات،

وبالطبع كان نجم الحضور السيد المحافظ، وقد أحاطت به فور وصوله عدسات المصورين ومندوبي الصحف، وقد لاحقته الأسئلة المعتادة والمشينة أحيانا، ولكنه كان كغيره من رجال الحكومة مدربا على مواجهة ما يثيره البعض من تساؤلات كانت الغاية الأبدية منها إحراج حكومته لصالح معارضيها التى تمنحهم مثل تلك الحوادث الفردية الفرصة للنيل منها؟ فعندما سأله أحدهم عن سبب تأخر وصول سيارات الإنقاذ ساعات بعد الانهيار، أعاد السبب إلى الطرق غير الممهدة وضيق الحارات، ولكن أحدا لم يسأله عن المسئول عن عدم تمهيد الطرق وضيق الحارات؟ كما برر الرجل ارتفاع عدد الضحايا إلى وقوع الحادث فى تلك الساعة المبكرة من الفجر، وكأن البيت كان عليه أن يختار توقيتا مناسبا لانهياره ؟ ألم يكن هناك من مؤشرات سابقة على الكارثة؟



(68)

حملت صحف اليوم التالى إلى قرائها نبأ انهيار البيت علي صدر صفحاتها الأولى، كما حظيت تصريحات المسئولين بعناوين كبيرة، وكانت أبرزها ما رصدته المحافظة ووزارة الشئون الاجتماعية من مبالغ سوف يتم صرفها لأسر الضحايا والمصابين، كما عزى مسئول من الحى انهيار العقار إلى جشع المالك وسلبية السكان،إذ أن المالك ويدعى بخيت كامل بيومى، قد قام بإضافة أربعة طوابق جديدة إلى العقار المنكوب دون الرجوع إلى الحى، أما السكان فقد تعاملوا بلا مبالاة مع المالك وهم يرون توالى عمليات البناء، ورغم أن صحيفة خاصة نشرت صورا ضوئية للتصاريح الصادرة من الحى للمالك وكذلك أرقام المحاضر التى حررها السكان ضده وضد المالك ومسئولين في الحى، وهو ما يتناقض مع تصريحات المسئول، وفى الصفحات الداخلية نشرت بعض الصحف تحقيقات مطولة عن الحادث، وصورا لإطلال البيت العتيق وبعض الضحايا والمصابين، وكان أكثر الضحايا من أصحاب الوحدات الجديدة التى جرت إضافتها إلى البيت، فلم تكن مصيبتهم في ضياع مدخراتهم على شراء وحداتهم بأقل من مصيبة فقدانهم لحياتهم أو حياة أفراد من إسرهم، ولاستجداء تعاطف القراء نشرت صورة جثة لرضيع وهى تنتشل من بين أنقاض،

وكانت محاطة بساعدى والده المصاب بنزيف من جراء جرح لا يعرف مدى خطورته بالجمجمة، وقد تم نقل الرجل إلى مستشفى شبرا العام بعد انتزاع جثة الرضيع من بين ذراعيه، وقد جرى التحفظ على الرجل فيما بعد، عندما علمت الشرطة بأنه هو ذاته مالك العقار المنكوب؟ وقد تحدث عدد من المصابين الذين شهدوا الحادث ونجوا من الموت إلى كاتب التحقيق، فقالت السيدة فوقية غانم التى كانت تقيم مع أولادها بالطابق الثانى من العقار، أنها كانت إلى جوار ابنها المريض والذى يعانى من شلل أطفال بالإضافة إلى ما أصابه بعدها من التهاب مزمن بالكبد، عندما استشعرت بهزة عنيفة ذكرتها بالزلزال الذى ضرب القاهرة عام ١٩٩٢م، ولكن تلك الهزة كانت اشد إذ تصدع الجدار الذى كانت تستند إليه فى الغرفة، فصرخت وراحت تنادي على ابنتيها النائمتين بالغرفة الأخرى وتطلب منهما مغادرة البيت على الفور، وجرت هى ناحية المريض فى محاولة فاشلة على حمله، ولكن التطور السريع للأحداث أجبرها على سرعة الخروج، وما أن وصلت إلى باب شقتها وفتحته حتي فوجئت بزحام كثيرين يتسابقون في هبوطهم فوق السلالم، فشاركتهم سباقهم، وهى تذكر أنها تمكنت من مغادرة الباب الخارجى للبيت بالفعل

إذ كانت على مقربة من وجود سيارة المالك التى كانت تسد مدخل الباب، ولكن البعض اصطدم بها فسقطت مع آخرين وقد غابت لحظتها عن الوعى، وعندما أفاقت وجدت نفسها فى احد أسرة المستشفى، وهي مصابة- كما ابلغوها -بكسر قطعي فى الحوض، وهو ما يجعلها عاجزة عن النهوض من فراشها للبحث عن أولادها، فما زال مصيرهم مجهولًا ، وقد ذكر كاتب التحقيق أن ابنتيها لقيتا حتفهما، أما مريضها فقد وقعت معجزة- على حد تعبير كاتب التحقيق -إذ كان أول من جرى إنقاذه، وقد روى أحد الناجين، ويدعى عبدالله صالح السويفى وهو من طلاب الأزهر، انه كان في طريقه لصلاة الفجر كعادته هو وزميله محمد نبيل، الذى كان قد سبقه بدقائق للمسجد، وكان بالقرب من باب البيت الخارجى، عندما سمع صراخ مفاجئ من داخل البيت، لم يستشعر بالهزة التى استشعرها غيره، فارتد ليصعد لاستطلاع الخبر، وفى تلك اللحظة انفتح باب جارته الست فوقية، وكان يعرف مأساة ابنها المريض، إذ كان كثيرا ما يعاوده ويرعاه، فاندفع إلى حيث يرقد المريض، فهاله جدار حائط يتقوس، فانتبه في تلك اللحظة إلى ما حدث، فسارع بحمل المريض إلى الخارج، وما أن بلغ الطابق الأرضى، حتى رأى جموع من السكان وقد حملتهم سلالم البيت، ولعلها انهارت بهم بعد أن كان هو وحمله قد وصلا إلى الشارع.



(69)

نجح رجال الإنقاذ بعد ساعات من بدأ عملهم، فى إنقاذ سيدة فى نحو الثلاثين من عمرها، كانت الدماء تغطى وجهها المستدير، ولكنها كانت بعافية تؤكد سطحية إصاباتها، وكانت ترتدى جلبابا شبه ممزق وقد تلون بلون الغبار الناتج عن الانهيار، وكانت تقاوم منقذيها بعنف وكأنها تود العودة إلى المكان الذى أخرجوها منه، وكانت تصرخ:

-الأموال والمصاغ؟ الأموال والمصاغ؟

حاول أحد منقذيها تهدئتها أن كل شيء مؤمن وتحت السيطرة، ولكنها تجاهلته وواصلت:

-الأموال والمصاغ فى حوزة اللص ومازال موجودا بالداخل؟

ظن المحيطون بها أنها تهذى من أثر الانهيار الذى ربما لم تستوعبه بعد، فعاد محدثها يوضح:

-لا يوجد لص، فقد انهار البيت وأنت الآن بخير؟

وتساءل آخر:

-أين إصابتك؟

واصلت مقاومتها وهى تشير إلى ساعديها الملطختين بالدماء لتؤكد أقوالها:
-لقد نزع مصاغى من ساعديي؟ وخطف حافظتى من يدى، بعد أن ضربنى بشىء على رأسى؟

ثم أشارت إلى النفق الذى أخرجوها منه وهى تواصل:
-لا تتركوه يهرب؟ فما زال بالأسفل؟ أعيدوا أموالى ومصاغى؟ هى كل مدخراتى؟
ثم أضافت فيما يشبه البكاء:
-ألا يكفى ما حل بطفلى وزوجى؟
كان الضابط المكلف بتأمين الموقع يتابع المشهد، وقد استلفت نظره إصرار المرأة على ما تقول، وعلى ما تبدى من مقاومه- رغم ما بها من جروح -لتبقى بالمكان، فأقترب منها وممن يحيطون بها، وراح يتحدث إليها:
-اهدئى من فضلك، أنت بخير وعلى قيد الحياة
قالت مستنجدة، وهى تشير ثانية ناحية النفق:
-مالى ومصاغى فى حوزته؟ وقد يهرب بهما؟

كان الأطباء قد نصبوا خيمة علي مقربة من موقع الحادث للإسعافات الأولية، وكان من أنقذوها قد حملوها، ومضوا بها إلى تلك الخيمة، ورافقهم الضابط وهو يواصل أسئلته:

-من هو؟

فكرت للحظات، ثم قالت فى ذهول:

-لا أعرف، لا أعرف؟ ولكنه هناك، وقد يجد منفذا آخر للخروج؟

-ما الذى حدث؟

واصلت بسرعة:

-لقد قاومته، ولكن الأشياء كانت توالى سقوطها، وهو لا يعبأ؟

-إلا تذكرينه؟

-قال إنه راسكولينكوف.

-من؟

انتفض جسدها وهم يضعونه علي الفراش المعد لاستقبال المصابين، ورجا طبيب الاستقبال من الضابط أن يتركها ليتمكن من فحصها، وتقدير ما بها من إصابات، ولكن الضابط تجاهله وراح يضغط:

-من هو راسكولينكوف هذا؟

كان الإعياء قد أخذ من المرأة حتى فقدت القدرة علي الكلام، فتركها الضابط وأسرع ناحية المتزاحمين خلف المتاريس، وراح يسأل إن كان أحد منهم يعرف إن كان بين سكان البيت أجانب يحملون جنسيات غير مصرية؟ فأنكروا ذلك؟ فطلب من رجال الإنقاذ البحث عن شخص يحتمل وجوده داخل ذات الجب الذى اخرجوا منه المرأة؟ كما أمر بعض معاونيه بتفتيش كل من يتم إنقاذه، أما المرأة فقد حملتها سيارة الإسعاف الي المستشفى، وعندما أفاقت المرأة روت تفاصيل الواقعة كما تذكرها.



(70)

قالت إنها استيقظت علي صوت بكاء رضيعها، فمضت إلى مطبخها لتعد له رضعته، وقد تركته فى رعاية والده، وما أن وصلت الي باب المطبخ حتى استشعرت وكأن الأرض تهتز أسفل قدميها، فظنت أن بها علة من أثر إجهاد سهرها الطويل فى خدمة طفلها الوليد، إذ كانت أمها التى كانت تساعدها على رعايته قد غادرتها إلى بيتها، ولكن الإحساس بالاهتزاز تواصل، ورأت بعينيها أثاث المطبخ يتحرك من مكانه، وقبل أن تهتدى إلى تفسير لما يجرى، سمعت صياح زوجها يطلب منها مغادرة البيت على الفور، وإذا هو يحتضن طفلهما ويسبقها إلى الخارج، فعادت مسرعة إلى دولاب ملابسها، فحملت من داخله حافظتها، ومن الغريب أن إحساسها بحركة الأرض وأثاث البيت قد تلاشى، حتى وهى تهبط درجات السلالم وسط الهابطين، ولعل سلالم البيت قد انهارت قبل أن تصل إلى نهاياتها، اذ دفعها أحدهم إلى ردهة الطابق الثانى، وقبل أن تنتبه لمن أعاقها كان صوت دوى انفجار هائل قد صك أذنيها، وإذا بها تفقد قدرتها على التحكم بحركة جسدها، وإذا هو يستند إلى أجساد أخرى تتهاوى إلى قاع قريب، فراحت تصرخ كغيرها فى خوف رهيب، ولعلها غابت عن الوعى ساعات، وراودها إحساس بأنها فارقت الحياة، فعندما فتحت عينيها لم تبصر غير الظلام، فظنت أنها داخل قبر،

وان كانت أذناها تلتقطان أصوات همهمة وأنين لا تتبين أصحابهما، فراحت تنتحب وقد غشاها الخوف ثانية، وظلت فى قبرها تتنفس غبارا جعلها تحرك يمينها لمسح انفها وفمها، ولعل حركة يدها أفاقتها، إذ بدأت تستعيد الأحداث، ولعلها أدركت فى تلك الساعة ما جرى؟ واستعادت صورة زوجها وهو يحتضن الطفل ويحثها على المغادرة، وتساءلت أكان يعرف؟ أم استنتج الكارثة قبلها بحكم خبرته؟ وانعكس ضوء من زاوية مرتفعه، وانتبهت الى أصوات غير واضحة جاءت مع الضوء، فراحت تصيح وتصرخ، وقد نجحت فى رفع رأسها إلى أعلى، وقد سمح لها الضوء المنعكس على اكتشاف شىء من موقعها، فحاولت تحريك قدميها وجسدها، وبدا ذلك ممكنا، ولكن شيئا ما كان عالقا بثيابها، وقبل أن تتمكن من محاولة إزاحته، أبصرت شبح رجل بلون الغبار، وكان يتحرك ناحيتها، وكان هو مصدر الأصوات التى سمعتها، فظنت أنه منقذها، خاصة وقد امتدت يده إليها، ولعله قال كلمات لم تتبين معانيها، ولكنها بعثت آمالا فى النجاة ، وإذا هو يحثها على معاودة الحركة مرة أخرى لتصعد خطوة ناحيته، وقد أغراها بوجود خلاء إلى جواره يؤمنه حائط صلب، ولكن الشىء العالق بثيابها أعجزها عن الصعود، كما لم تتمكن يدها من الوصول إليه، فانتبهت لأول مرة إلى وجود حافظة نقودها بقبضتها،

فطلبت مساعدته، وما أن مدت ساعدها فى اتجاهه ليمسك بها، حتى تحول إلى لص، فقد احتجز ساعدها، وجذب بحركة مباغتة حافظتها من قبضتها، وراح ينزع بقسوة أساورها، فصرخت مستغيثة بلا شىء، وقد تعلقت يدها الأخرى بسيخ من الحديد كان يبرز من احد الأعمدة، فى محاولة يائسة لجذب ساعدها الذى احتجزه الشبح، وقد راح الشبح يواصل نزع الأساور، وقد استعان بآلة حديدية فى محاولة لضربها، غير عابئ بصراخها، أو الكارثة التى كانا يتقاسمانها:

- ألا تفكر فى النجاة خيرا من مال لا قيمة له إن متنا؟

فصرخ الشبح فى وجهها:

-لن يموت غيرك؟ أنا راسكولينكوف يا عنبة؟

وكرر الشبح جملته تلك مرات، وإذا بالسيخ التى كانت يدها معلقة به يهتز بقبضتها، فراحت تنتزعه حتى امتلكته، ووسط صراخها انهالت به ناحية الشبح لإنقاذ ساعدها التى تجردت من أساورها، وكان جسدها كله يتحرك وهى تواصل الضرب بعشوائية فى اتجاه الشبح، وإذا بشىء ما يتهاوى بينهما، ولكن الشبح كان قد اختفى بحافظتها وأساورها، فواصلت الصراخ إذ تلاشى الضوء مع تهاوى أطلال أخرى، ثم فجأة قالت صارخة، وقد توقفت عن السرد:

- ضاعت أموالى ومصاغى

قال الضابط مطمئنًا

- لم يهرب أحد فلا تقلقى، ومن المؤكد أن اللص مازال موجودا أسفل الأنقاض

ثم سألها:

- ألم يسبق لك رؤية هذا اللص، أو كان من سكان البيت؟

انتبهت فجأة وهى تصيح كمن تذكر شيئا:

- نعم، نعم أعرفه، هو ليس راسكولينكوف كما يدعى، بل هو سعيد، سعيد الدسوقى.

ثم واصلت بسرعة:

- لقد كان من سكان البيت ولكنهم طردوه لسوء سلوكه، ولكن عم خميس هو من يستبقيه فى شقته، فهو شريكه، وهو من يحرضه على قتلى، وسرقة مصاغى، والإساءة إلى طفلى.

ثم أضافت مؤكدة:

- وكم من مرة غازلنى؟ وكان يحثنى على الرذيلة، ولكننى كنت أصده، فأنا سيدة شريفة، ومتزوجة من رجل شريف وذي بأس عظيم .

واصلت وهي تبكي دون دموع:

- إنه يكره زوجى، وهو المسئول عن انهيار البيت، إذ كان زوجى يتهيأ لترميمه، ولكن محاضر الشرطة التى لا يكف عم خميس هذا عن حث السكان على تحريرها ضد زوجى هى من عجلت بالكارثة.



(71)

غادر خميس بكر المستشفى، بعد أن قام الطبيب بلف جبيرة على كاحله الأيمن، وكان أول ما فعله أن قام بشراء عصا«عكاز» ليتكأ عليها فى سيره، حيث كان مازال يستشعر آلاما فى ملامسة قدمه للأرض، ترى أى مصير ينتظره؟ وأين يقضى لياليه؟ ولم تكن لديه من إجابة، ولم يكن يعقد آمالا على ما قامت به المحافظة من تسجيل أسماء من كانوا مقيمين بالبيت لتدبير مساكن لإيوائهم؟ وحتى يحدث ذلك فعليه تدبير مأواه بمعرفته؟ كيف؟ فمضى إلى موقع البيت فعبر قضبان السكك الحديدية بصعوبة أرهقته، إذ كان عليه الصعود والهبوط مستندا إلى عكازه الذى لم يكن قد أحسن استخدامه بعد، وعندما وصل إلى المكان كان الزحام مازال شديدا، وكانت عمليات الإنقاذ مازالت تتواصل، وقد هاله حجم المخلفات التى كان يحملها البيت، ترى أين مخلفاته منها؟ كيف يعثر على كتبه وسط هذا الهشيم؟ وماذا عن ثيابه وهو لا يمتلك الآن غير ما يستره من ثياب تلبدت بالعرق الكريه؟وحاول اختراق المتاريس ولكن أحد الجنود احتجزه، فصاح محتجا:

-أنا ممن كانوا يسكنون بالبيت، ويجب أن ابقي قريبا من ممتلكاتى؟

نظر الجندى ناحية الضابط، ثم أفسح له ليعبر إلى حيث يقف الضابط، فانسل بعصاه من بين المتاريس، وقد تبدت لعينيه ساحة مختلفة عما رآها، وأبصر خياما قد جرى نصبها فوق ارض أخلاها رجال الإنقاذ، وقد اعتصم داخلها بعض الناجين من السكان، واستوثق الضابط أن كان الوافد من السكان قبل أن يسمح له بمشاركة المعتصمين خيامهم، وقد تطوع أحد السكان بمعاونته فى الصعود إلى ناحية الخيام عندما رأى عصاه، كانت إحدى الخيام مخصصة للنساء، وقد عرف منهم أرملة عم فوزى وواحدة من بناتها، وكانت تجاورها خيمة اكتظت بكثير من السكان الجدد، بينما ارتفعت عن الخيمتين خيمة ثالثة كان داخلها الشيخ عبدالله ومحمد نبيل وبعض من كانوا يعملون بدكان الدواجن إبان نشاطه، فتساءل عن علاقتهم بالبيت؟ ولكن أحدا لم يجبه؟ فلم يؤنس خيمة من تلك الخيام، وتساءل لماذا لا تكون له خيمته الخاصة؟ ولكنه لم يتمكن من حسم أمره، إذ انتبه مع الجميع على أصوات تعالت من رجال الإنقاذ وكانوا يحيطون بمدخل سرداب أقاموه بالأعمدة الخشبية للوصول إلى باطن الأنقاض، وكان احد رجال الإنقاذ داخل السرداب يتحدث إلى من هم أعلى بواسطة جهاز لاسلكى،

وكان يخبرهم عن عثوره على رجل مازال يتنفس رغم تخضب جبهته وجمجمته بالدماء؟ كان هذا المدخل هو الذي أخرجوا منه الست عنبة، فاهتم الضابط بالأمر، وراح يتحدث إلى من هم بالأسفل :

-ابحث عن حافظة ومصاغ فى هذا المكان؟ أو إلى جوار الرجل الذى عثرت عليه؟

وطلب من بالأسفل دعمه بمن يساعده، وعلى الفور هب من بالخيام يترقبون الحدث، فللكثير منهم أقارب ومعارف مازالوا مفقودين أسفل الأنقاض، ومضى وقت ثقيل قبل أن تتعالى الهمهمات ثانية، والرجلان يصعدان بجسد مغطي بالغبار والدماء من أسفل السرداب، وقد تزاحم الجميع لمعرفة هويته، فصاحت عجوز تجاوزت السبعين من العمر:

-انه حفيدى؟

وراحت تجرى ناحيته وهم يحملونه إلى خيمة الإسعافات، وما أن نظر الضابط ناحية المتزاحمين حتى قال أكثر من صوت:

-أنه سعيد، سعيد الدسوقى

وعلي الفور طلب الضابط من أحد رجاله تفتيش ثيابه غير عابئ بصرخات جدته، كما حث من أنقذاه إلى العودة للمكان الذى عثرا فيه عليه للبحث عن مفقودات، فانتبه خميس إلى ما يجرى، فاقترب من الضابط بحرص وقلق:

-لماذا التفتيش؟ لقد كان واحدا من السكان؟

-هل هو من أقاربك؟

-كان بمثابة ابن؟

-هو متهم بسرقة زوجة المالك بالإكراه؟ وقد أوهمها أنه رجل أجنبي يدعى راسكولينكوف ؟

صعقه الاسم، ففغر فاه، وهم بالتوجه إلى الخيمة المخصصة لرجال الإسعاف للاطمئنان على الشاب، ولكن صراخ الجدة وولولتها جعلاه يتراجع، وإذا بعصاته تخزله وتخرق أرضا غير مستوية حتى كاد يسقط، ولكنه تماسك متحملا آلام كاحله وقد شد عصاه بسرعة وراح يختبر بمقدمتها متانة تله مرتفعة، وعندما اطمأن لصلابتها صعد فى اتجاهها، ولكن ساقه خذلته ثانية فتراجع إلى الخلف حتي اصطدم بأحد الأعمدة التى تقوم عليها خيمة عبدالله وجماعته، وإذا بيد أحدهم تحتجزه بقوة غاشمة، فتوقف وقد انتبه لمكانه،

إذ كان من بداخل الخيمة قد بسطوا أوراق صحيفة أمام الخيمة وقد اصطفوا للصلاة، وامتدت يد من سيؤمهم ناحيته بعنف، فأزاحت به بعيدا عن مدخل الخيمة، فتماسك غاضبا وهو ينظر شررا ناحية من احتجزه، فبادره أحدهم وكأنه ينبهه:

-ابتعد، فأنت تقف أمام القبلة؟

وقبل أن ينبث سارع الشيخ عبدالله ناحيته، وأشار إلى تلة أخرى على مقربة من الخيمة:

-توجد حنفية حريق خلف هذه التلة، فى استطاعتك استخدام مائها للوضوء.

لم يحتمل خميس بكر ، إذ استشاط غيظًا ، فأخذه الغضب والحنق للتراجع خطوتين إلى الوراء ، حتى ثبتت قدماه بالأرض ، فرفع عكازه الصلب وهوى به بقوة مفاجئة فوق رأس عبد الله ، غير عابىء بذهول المصطفين ، أو الدم الذى راح يتدفق بغزارة من جمجمة الشيخ الصغير.

انتهى